

قال الله تعالى - وهو أول ما أنزل من القرآن: " اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم ". فجعل تبارك اسمه أول ما أنزل من القرآن ذكر التفضيل على عباده بخلقه لهم، وما ندبهم له بذلك، من البقاء الدائم والنعيم المتصل، لمن آمن به ووحدته وصدق بنبيه صلى الله عليه وسلم. ثم أتبع ذلك بذكر الأنعام عليهم بما علمهم من الكتاب الذي به قوام أمر دينهم ودنياهم، واستقامة معاشهم وحفظها. ولولا أن من لا يحسن الكتابة يجد ممن يحسنها معونة وإبانة عنه، لما استقام له أمر، ولا تم له عزم، وحل محل الصور المثلثة، والبهائم المهملة. ومعنى قوله الذي علم بالقلم: الذي علم الكتابة بالقلم.

وقال عز وجل: " ن والقلم وما يسطرون، ما أنت بنعمة ربك بمجنون " فأقسم في القرآن بما خلق من ذلك أعني القرآن وما يكتب به من حبر ومداد وما يكتب فيه من سفر وقرطاس وأشباههما. على أن نون ههنا، عند بعضهم، السمكة التي تحمل الأرضين. وقال بعضهم: يريد الحرف. وكذلك عند هؤلاء يس وطس وكل ما في القرآن من ذلك. وإنما هو افتتاح السور بهذه الأحرف التي السور منها غير خارجة عنها. يقول عز وجل هذا القرآن بهذه الحرف العربية، ليس فيها لسان أعجمي ولا حرف من حروف العجم ليبطل بهذا ما زعمه الكفار أن النبي صلى الله عليه وسلم يتعلم القرآن من يهود ونصارى يقرأون بالعبراني وغير ذلك من الألسن. ألا تراه جل وعلا كيف بين ذلك فقال: " ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين " .

وسأل رجل أحمد بن يحيى ثعلب، وأنا حاضر، عن قسم الله عز وجل بالأشياء التي خلقها مثل قوله تعالى: " والتين والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم " فوقع القسم على الآية الأخيرة. فقال أحمد بن يحيى: رأيت الرؤساء من العلماء يقولون معناه: وخلقني الذي لا يقدر أحد أن يخلق مثله لقد كان كذا وكذا.

وقال جل وعلا: " وإن عليكم لحافظين، كراماً كاتبين، يعلمون ما تفعلون " وقال: " بأيدي سفرة كرام بررة " . فالسفرة الكتبة، الواحد سافر والجمع سفرة، مثل كافر وكفرة. ومعنى سافر كاتب يكتب في الأسفار، واحدها سفر، وهي الصحف وسفر إذا كتب من سفر فهو سافر. وكان المأمون وجد على بعض كتابه في شيء، فكتب إليه:

ونحن الكاتبون وقد أسأنا... فهينا للكرام الكاتبينا

فعفا عنه. وبالكتابة جمع القرآن، وحفظت الألسن والآثار، ووكدت العهود، وأثبتت الحقوق، وسيقت التواريخ، وبقيت الصكوك، وأمن الإنسان النسيان، وقيدت الشهادات، وأنزل الله في ذلك آية الدين وهي

أطول آية في القرآن.

وقد سمعت بعض من حرم فضيلة الكتابة يقول: لو كانت الكتابة فضيلة، لكانت في رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو لا يدري أن في ذلك فضلاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ونقصاً لغيره، لأن الكفار إدعوا عليه أنه يحسن الكتابة، وأنه يتعلم ما يأتي به في القرآن من أهل الكتاب، وكتبه فهو يقرأه، ويأتي بتفسير شيء منه، ويشرحه بلسانه، وهو صلى الله عليه وسلم ما قرأ ولا كتب قط، ولا هياً الله له طلب ذلك، ولا عرف بتعلمه لما أراده جل وعز من الاختصاص بالرسالة، وإيضاح الحجة، على من زعم أنه يكتب. ألا ترى إلى حكاية الله عز وجل لقول الكفار: "اكتبها فهي تملئ عليه بكرة وأصيلاً"، ما كذبهم عز وجل وجعل من أفضل صفاته عليه الصلاة والسلام قوله: "النبي الأمي"، فقال: "فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي". وقال: "الذين يتبعون الرسول النبي الأمي".

وليس هذا الكتاب والفوائد فيه معمولاً لتابع دون متبوع، ولا حامل دون نبيه، ولا محروم دون محظوظ. ولا ينبغي لمن رفعت حاله، وساعده جد، وهو يؤنس من نفسه تقصيراً في الأدب، وتخليقاً عن صناعة الكتابة، أن يغتر بحظه، وإقبال الأيام عليه في وقت، فإنها دول متقلبة وأحوال متصرفة، وليتلاف ما ضيع، ويستدرك ما فرط، ولا يتكل على كفاءته، مشتغلاً ببلذته، ومربحاً قلبه وجسمه، مستعيراً في كل وقت عليهم، ومتكلاً على كفاءتهم، ينام ويسهرهم، ويفرغ ويشغلهم.

فإن هذا الفعل إنما يحسن بالرؤساء إذا أشرفوا على العلم، واستفلوا بالصناعة، وعرفوا ما يحتاجون إليه من أمر الكتبية وحفظوه. فعند ذلك تشرف عندهم أنفسهم، ويحسن بمن عندهم استقامتهم، حتى تحملوا عنه ما هو أعلم به منهم، ولا يكونوا أسراء في أيديهم، ولا مضطرين إلى ما عندهم. وقد قال بعض الحكماء: "كل شيء يمكن أن يستعار إلا اللسان" وقال: من خدم السلطان بلا علم واستقلال، وتجربة وكمال، كان بمنزلة راكب فيل صعب، وسابح في بحر قد جف. ومع ذلك فإن الأتباع إذا أحسوا من الرؤساء بتفويض إليهم، على قلة علم منهم، واضطرار إلى كفاءتهم، ولم يحس الأتباع منهم حسن مجازاة على جميل إفادتهم، سوء مكافأة على قبيح أفعالهم، حتى يستوي عندهم محسنهم، ومسيئهم وخائنهم وأمنهم، وكافئهم وعاجزهم؛ انتقل الأمين عن مر الوفاء إلى حلاوة الخيانة، وازداد الخائن بصيرة فآثر الإضرار، وقصر الكافي عن إتعاب النفس وكد الانتصاح؛ فقد يرى الأمين صنيعه فيخون، ويرى الخائن جرماً فيعف، فيضطرب عند ذلك الحبل، وينشر الأمر، وتنعكس مساوي قوم محاسن آخرين.

قال أبو بكر: وإنما ذكرت هذا الفصل، لأرغب أهل هذه الصناعة الشريفة، في الإقبال عليها، وإنفاق بعض العمر في طلبها، فإنها من أجل ما كد فيه الفكر، وقطعت به الأيام. وقد استعمل اللفظة التي حكيتها - أعني إنفاق بعض العمر - شاعر من الأزد فقال:

هزئت عميرة إذ رأت ظهري انحنى ... وذؤابي علت بماء خضاب

لا تمزني مني عمير فإنني ... أنفقت فيكم شرقي وشبابي

وفيه غناء في طريق التثليل الثاني. وليس يجب لمن صفر من هذه العلوم أن يدع التعلم آيساً من الاستفادة، مولياً عن الاستزادة. فربما كان الإنسان مهياً الذهن لحمل العلم، قريب الخاطر، متقد الذكاء، فيضيع نفسه فإهاها

وميت خواطره بترك استعمالها، فيكون كما قال علي بن الجهم:
والنار في أحجارها محبوءة ... ليست ترى إن لم يشرها إلا زند
وإنما أخذه من قول الأول:
أنا النار في أحجارها مستكنة ... متى ما يهيجها قادح تنوقد
ومثل قوله:

أنفقت فيكم شرقي وشبابي

ما أنشدناه ابن ذكوان القاسم بن إسماعيل قال: أنشدنا أبو مجلي السعدي لحضرمي بن عامر يعاتب عوف بن عبد الله في أبيات:

تجود أسباب المودة بيننا ... حديثاً وأسباب المودة تخلق
لعلك يوماً أن يسؤك أني ... قريب ودوني من حصي الأرض محقق
وتنظر في أسرار كفيك هل ترى ... لها خلفاً مما يفيد وينفق
هذا مثل يضرب للنادم قال الأعشى:

فانظر إلى كف وأسرارها ... هل أنت إن أوعدتني ضائري

ومنه قول الله عز وجل: " فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها " . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " قريش أهل الله وهم الكتبة الحسبة " . وروي عن كعب الأحبار، أنه قال: " إنا ل نجد قريشاً في الكتاب الكتبة الحسبة ملح الأرض " . وروي في تفسير قوله تعالى: " ويعلمهم الكتاب والحكمة " قال: يعني القرآن لا الخط قال الشاعر:

إن الكتابة رأس كل صناعة ... وبها تتم جوامع الأعمال

ما روي في أول من كتب الكتاب بالعربي

قد ذكرت أن اختصر جميع ما ذكره، وألقي أسانيده ليقرّب على طالبه ومستفيده، إلا ما لا بد منه، من ذكر نسبه وإسناده، وإنما أجزى إلى ما ذكرته.

روي عن كعب الأحبار، أنه قال: " أول من كتب الكتاب العبري والسرياني وسائر الكتب آدم صلى الله عليه وسلم، قبل موته بثلاثمائة سنة، كتبها في طين ثم طبخه، فلما غرق الله جل وعز الأرض، أيام نوح، بقي ذلك فأصاب كل منهم كتابهم. وبقي الكتاب العبري إلى أن خص الله به إسماعيل فأصابها وتعلمها " . وروي عن ابن عباس " أن أول من وضع الكتابة العربية إسماعيل على لفظه ومنطقه، فعلمه موصولاً حتى فرق بينه ولده " .

وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وعروة بن الزبير أنهما قالوا: " أول من وضع الكتاب العبري قوم من الأوائل، نزلوا في عدنان بن أد بن أدد، أسماؤهم أبجد وهوز وحطي وكلمن وسعفص قرشت، فوضعوا الكتاب العبري على أسمائهم ووجدوا حروفاً ليست من أسمائهم وهي الثاء والحاء والذال والطاء والضاد والظاء والغين قسموا بالروادف " . وقد روي أنهم كانوا ملوك مدين، وأن رئيسهم كلمن وأنهم هلكوا يوم الظلة مع قوم

شعيب عليه السلام فقالت أخت كلمن تراثيه:

كلمون هد ركني ... هللكه وسط الخله

سيد القوم أتاه آل ... حتف ناراً وسط ظله

كونت ناراً فأضحت ... دار قومي مضمحلته

وقيل: إن هؤلاء أخذوا كتاب إسماعيل عليه السلام، فعملوا منه كتاباً يتعلم منه، لأن الأحاديث عنهم أهم استعربوا وضعوا الكتاب العربي والله أعلم.

وروي عن ابن جعدة " أن أول من كتب العربية مرامر بن مرة. وأسلم بن الدرة، اجتماعاً حتى وضعاً مقطعه وموصله، وهما من أهل الأنبار ". قال: وسئل المهاجرون من أين تعلموا الكتاب فقالوا: من أهل الحيرة. فسئل أهل الحيرة من أين تعلموا، فقالوا: من أهل الأنبار.

وقد أعرب الناس أبا جاد وسعفصاً، فقال معاذ الهراء يخاطب رجلاً عاب النحو والعربية:

عاجتها أمرد حتى إذا ... شبت ولم تعرف أبا جادها

سميت من يعلمها جاهلاً ... يصدرها من بعد إيرادها

وقال آخر:

وخطوا لي أبا جاد وقالوا ... تعلم سعفصاً وقريشات

حدثنا الحسين بن مرثد، قال: حدثنا محمد بن سلام، قال: أخبرنا يونس، قال: سمعت أبا عمرو يقول: العرب كلها أولاد إسماعيل فأصهر إليهم، والعربية التي روى محمد بن علي بن الحسين بن علي صلوات الله وسلامه عليهم، أن أول من تكلم بالعربية إسماعيل عليه السلام فأما يعني اللسان الفصيح الذي نزل به القرآن وعربية حمير وبقايا جرهم، غير هذه ليست بفصيحة.

أصل كتاب بسم الله الرحمن الرحيم وابتدأه

قال الصولي: سألت أبا خليفة بن حباب الجمحي عن ابتداء الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال: سأل ابن عائشة عبيد الله بن محمد بن حفص عن ذلك، فقال: حدثني أبي أن قريشاً كانت تكتب في جاهليتها " باسمك اللهم " ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم كذلك، ثم نزلت سورة هود وفيها " بسم الله مجراها ومرساها " فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يكتب في صدر كتبه: " بسم الله " ، ثم نزلت في سورة بني إسرائيل " قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى " ، فكتب: " بسم الله الرحمن " ، ثم نزلت في سورة النمل: " إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم " . فجعل ذلك في صدر الكتب إلى الساعة. وكتب " بسم الله الرحمن الرحيم " في أول كل سورة من القرآن، إلا في أول سورة التوبة، فإنه يروي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: لم يكتب بين الأنفال بسم الله الرحمن الرحيم والأنفال من أول ما أنزل الله في المدينة، وبراءة من آخره، إلا أنها تشبهها، وقصتها كقصتها. وكان النبي صلى الله عليه وسلم ربما تلا الآيات فيقول: " هذه مكانها في سورة كذا، فاجعلها تليها " . وهذا بفضل من الله عز وجل عليهم.

كيف يفتتحون كلامهم ليبارك لهم فيما يحاولون ويؤجروا عليه

والمعنى: اقرأ يا محمد بسم الله وقل بسم الله، ثم حذفت قل ليعلم المخاطب أن معناه الأمر.
والباء صلة فعل محذوف حذف لعلم القارئ به وهو: أبدأ بسم الله وأقرأ بسم الله، لأن جبريل كان إذا نزل
بالوحي قال: " اقرأ يا محمد، قال: وما أقرأ؟ قال: اقرأ بسم الله " . والمعنى في الابتداء بها، في غير القرآن، بدأت
بسم الله. ثم كثر ذلك وعلم حتى أسقطوا بدأت. وقال سيبويه: معنى الباء الإلصاق تقول: كتبت بالقلم، فالمعنى
أن الكتابة ملصقة بالقلم. وهي مكسورة أبداً لأنه لا معنى لها إلا الحذف، فوجب أن يكون لفظها مكسوراً.
والله تبارك اسمه، اسم خاص للمعبود جل وعلا، لا يسمى به سواه. قال الله تعالى: " هل تعلم له سمياً " . قال
المفسرون: لا يعلم من تسمى الله إلا الله عز وجل، ولا يعرف لهذا الاسم اشتقاق من فعل. ولا أحب ذكر ما
قاله النحويون فيه لأنه يكلف لا يضر تركه.

وأسماء الله عز وجل، بعد هذا، صفات: فالرحمن الرحيم ذو الرحمة، ولا يقال رحمن إلا لله تعالى. ويقال: فلان
رحيم لأن رحمن في وزنه فعلان، من أسماء المبالغة في الرحمة وغيرها، والله تعالى نهاية في الرحمة وليس شيء
كذلك، فلهذا لم يسم به غير الله.
والرحمة من الله تجاوز عن ذنب، وإحسان عن حسنة، وإيصال الخير إلى عباده. والرحمة من العباد إشفاق ورقة،
تحدث فيهم.

وليس في الأفعال ما يبنى عليه ثلاثة أسماء مثل رحم فهو راحم، ورحيم ورحمان إلا سلم وسليم وسليمان، وندم
فهو نادم ونديم وندمان، ولا يقال من الندمان: نادم إنما يقال: نادمته.
والألف في بسم الله وصل لأن غيره تصغيره سمي. وحكى أبو زيد أن العرب تقول: هذا اسم وهذا سم وسم
وأنشد:

بسم الذي في كل سورة سمه

ويروى سمه، وإنما ضموا السين وكسروها، لأنه سموت وسميت بمعنى ارتفعت وعلوت، فمن قال: سم فكسر
فمن سميت ومن قال سم فهو من سموت. ومعنى قولك: أسميت لفلان فلاناً، وإنما هو رفعت له صفته وما يعرفه
به حتى عرفه. والاسم مأخوذ من السمو وهو الارتفاع، وأصله سمو والجميع أسماء مثل حنوا وأحناء وقنوا
وأقناء.

ومن قال الاسم مأخوذ من السممة، كأنك إذا قلت: أسميته لفلان، كان المعنى وسمته له بشيء عرفه به، حذفت
منه فاء الفعل ودخلته ألف الوصل ألا ترى أن عدة وزنة أصلهما وعدة ووزنة، فإذا صغرتهما رجعت الواو،
فقلت: وعيدة ووزينة.

وكذلك تصغير صلة وصيلة، فلو كان اسم من سممة لكان تصغيره وسممة، ولكن تصغيره سمي، فبطل أن يكون
من السممة، فكان يجب أن يكون وسم وسممة، ووزن وزنة، كما قالوا صل صلة، ولكن وقعت الواو، ولذلك
كان يجب أن يقال وزن يوزن، مثل عدل يعدل، فوقعت الواو بين ياء وكسرة، فحذفت فقيل وزن يزن، وإنما
كرهت العرب أن تتكلم بضممة بعد كسرة، وكسرة بعد ضمة في الواو والياء، لأنه يصعب في اللفظ قليلاً. وإنما
يتكلمون بما خف على ألسنتهم، ولذلك صحت لهم الأسماء في الثلاثي كله، إلا في صنفين.

والثلاثي قولهم فعيل وقد سموا على فعل، فقالوا: عضد وسموا فعل فقالوا: عنب، وسموا بفعل فقالوا: إبل، وسموا

بفعل فقالوا: طنب، وسموا بفعل فقالوا: حرد، ولم يسموا بفعل ولا بفعل كراهة لثقل ذلك ليس في أسمائهم دتل ولا شيء على وزنه، ولا مثل دول ولا شيء على وزنه.

حذف الألف من بسم الله وما ذكر من حذف السين

أجمع القراء وكتاب المصاحف على حذف الألف من بسم الله الرحمن الرحيم في فواتح السور والكتب وعلى كتبهم إياها في قول: " فسيح باسم ربك العظيم " ، لأنها وقعت موقعاً معروفاً لا يجهل القارئ معناه وكثرت فاستحق طرحها. إذ كان من شأن العرب التخفيف إذا عرف المعنى ولم يكثر ككثرتة مع الله عز وجل، فحملهم كثرة الاستعمال ومعرفة المعنى لأنه يقال بدأت بسم الله فحذفت بدأت ثم حذفت الألف في الخط. وحذف قوم السين وذلك مكروه لأن حروف الزيادة والنقصان الألف والواو والياء فحذفت الألف وليست السين كذلك.

روي أن كاتب عمرو بن العاص، كتب إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه " بسم الله " باءً وميماً وحذف السين. فأمر عمر بضربه فضرب، ف قيل: في أي شيء ضرب؟ ف قيل: في سين. فضربت مثلاً. ويصير إذا حذفت السين كأنه " بسم الله " وبم ولم يستفهم بهما. وألف اسم لا يحذف إذا أضيفت إلى غير الله، ولا تحذف في غير الله من الصفات مثل اللام في قولك: " لاسم الله حلاوة في القلوب " و " ليس اسم كاسم الله " لا بد من إثباتها. وأجاز الكسائي طرح الألف في قوهم: باسم الخالق وباسم الرحمن، وغيره يأبي ذلك، ولا يجيزه إلا في بسم الله وحده. وعلى هذا العمل وهو الصواب. وكتبوا: الرحمن، بغير ألف لكثرة الاستعمال وإن المعنى لا يخل.

رسوم الكتاب في كتابتهم بسم الله الرحمن الرحيم

يختار الكاتب أن يبدأ بكتاب بسم الله الرحمن الرحيم، من حاشية القرطاس، ثم يكتبون الدعاء من تحته مساوياً، ويستقبحون أن يخرج الكلام عن بسم الله الرحمن الرحيم، فاضلاً بقليل، ولا يكتبوها وسطاً، ويكون الدعاء فاضلاً، وإنما يفعل ذلك بالتراجم.

ومن الكتاب من يرى أن يجعله وسطاً، في أسفل الكتاب، بعد انقضاء الدعاء الثاني والتاريخ، إذا احتاج إلى تبين نسخة كتاب متقدم، أو حساب، ليفرق بين منزلته من صدر الكتاب وبين عجزه. وقد ذهب إليه قوم.

ولا يفسح ما بين بسم الله الرحمن الرحيم وبين السطر الذي يتلوه من الدعاء ولكن يفسح ما بين الدعاء، إذا استتم، وبين سائر المخاطبة. ولا يتجاوز بالدعاء ثلاثة أسطر، ولا يستتم السطر الثالث، على المشهور من مذاهب أجداء الكتاب.

" أما بعد " وما جاء فيها

قال الصولي: حدثنا زياد بن الخليل التستر، قال: حدثنا إبراهيم بن المنذر قال: حدثني عبد العزيز بن عمران، عن محمد بن عبد العزيز، عن عمر، عن أبيه، عن أبي سلمة، قال: " أول من قال أما بعد كعب بن لؤي. وكان أول من سمي الجمعة وكانت تسمى العروبة " .

ويروى أن أول من قال: أما بعد، داود النبي عليه السلام وأن ذلك فصل الخطاب، الذي قال الله عز وجل: " وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب " .

حدثنا زياد بن الخليل قال: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحرائي، قال: حدثني عبد العزيز بن عمران، عن أبي الزناد، عن أبيه، عن بلال بن أبي بردة، عن أمه، عن جده أبي موسى، أنه قال ذلك.

وقال الشعبي: فصل الخطاب الذي أعطيه داود عليه السلام: أما بعد. فمعنى فصل الخطاب، على هذا، أنه إنما يكون بعد حمد الله، أو بعد الدعاء، أو بعد قولهم: من فلان إلى فلان، فينفصل بها بين الخطاب المتقدم وبين الخطاب الذي يجيء بعد. ولا تقع إلا ما ذكرناه. ألا ترى قول سابق البربري لعمر بن عبد العزيز:

باسم الذي أنزلت من عنده السور ... الحمد لله أما بعد يا عمر

فإن رضيت بما تأتي وما تذر ... فكن على حذر قد ينفع الحذر

والمعنى في أنها لا تقع مبتدأة، أن المراد بها أما بعد هذا الكلام، يعني الذي تقدم فإن الخبر كذا وكذا.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كتب إلى بني أسد: " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى بني أسد. سلام عليكم، فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو. أما بعد فلا تقرين مياه طي ولا أرضهم فإنه لا يحل لكم " .

فإذا كتب كاتب: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد كان كذا وكذا، فمعناه: أما بعد قولنا بسم الله، فقد كان كذا وكذا وأنه قد كان. فإنها لا تقع إلا بعد ما ذكرناه.

ولا بد من مجيء الفاء بعد أما لأن أما لا عمل لها إلا اقتضاء الفاء واكتسابها، فإن الفاء تصل بعض الكلام ببعض، وصلاً لا انفصال بينه ولا مهلة فيه. ولما كانت أما فاصلة، أتيت بالفاء لترد الكلام على أوله. وليست تدل الفاء على تأخير متقدم، ولا تقديم مؤخر، ولا يستوي معناهما فيها ولا معها.

ومما أجمع أهل اللغة، على أن حالفاً لو قال: والله لآتين الكوفة والبصرة، فبدأ بالكوفة في لفظه، ثم أتى البصرة قبل الكوفة ثم أتى الكوفة، إنه غير حانث لأن الواو عندهم أتم حروف النسق، وإنما للإشراك تدخل الآخر فيما أدخلت فيه الأول لا فرق.

وأجمعوا على أنه إذا قال: لآتين الكوفة بالبصرة أنه إن لم يأت الكوفة التي بدأ بها في لفظه، ثم يخرج منها إلى البصرة مسرعاً مزعجاً، غير متلبث إلا لفكر في خروجه، أو إصلاح لطريقه، أنه فانت، لأن الفاء حرف إزعاج وإسراع. فإذا قال: لآتين الكوفة ثم البصرة، بدأ بالكوفة وأقام ما شاء بعد، لا ينقص عزمه في إتيانها، ولا تتغير نيته إلى وقت قصده إياها، لأن ثم عندهم حرف إمهال وتنفيس.

والذي عليه أكثر الفقهاء، في فصل الخطاب، أنه فصل الحكم والقضاء. وقال الضحاك بن مزاحم: فصل الخطاب العلم بالقضاء. وروي عن شريح والحسن البصري، أنهما قالوا: فصل الخطاب الشهود والأيمان، ذهب إلى أنه يجب بهما الحكم وتنفصل الأشياء.

حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثنا سفيان، عن الأسود، عن قيس، عن ثعلبة، عن عباد، عن سمرة أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب حين كسفت الشمس فقال: " أما بعد " .

تصدير الكتب وما يقع فيها

فقد استعمل الناس قريياً من ترتيب الدعاء، وتكثيره وتقليله، أشياء كلفوا أنفسهم فيها، مؤونة المخاضة فيها والتحفظ فيها منها. وقد كان المتقدمون يسمحون في ذلك، ولا يتشاحون عليه إلى الرسوم في الكتب عن الأئمة فإنها على الأمثلة التي كانت تجري عليها الكتب، وتصدر بها في أيام النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً، لم تغير عما كانت تصدر به عن النبي صلى الله عليه وسلم: يبدأ باسمه ويختتم الكتاب باسم كاتبه. وكذلك هي عن الأئمة بإمرة المؤمنين والإمامة، والتصدير في أول الكتاب، والدعاء في آخره للإمام وولي العهد والوزير واحد. إلا أنهم قالوا: سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، وكذلك لولي العهد في التصدير والدعاء الأخير. ولم يقولوا للوزير وبركاته ليفرقوا بين الخلين. وقد كتب بعضهم في عجز الكتاب إلى الوزير وبركاته. فأما في التصدير فلا وذلك للفرق بين الخلين.

وكان التصدير ينتهي إلى قوله: " فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. إلى أن أفضت الخلافة إلى الرشيد، فأمر أن يزداد فيه وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم " . فكتب بذلك إلى هذا الوقت. فكانت هذه من أفضل مناقب الرشيد.

وكان الرشيد، قال ليحيى بن خالد: قد عزمت على أن يكون في كتيبي من عبد الله هارون الإمام أمير المؤمنين عبد محمد رسول الله. فقال له يحيى: قد عرف الله نيتك في هذا يا أمير المؤمنين، وحان لك أجره، والتعبد إنما هو لله وحده لا لغيره. قال: فاكتب: " من هارون مولى محمد " . فقال: إن المولى عند العرب ربما كان ابن العم وجزى الله أمير المؤمنين خيراً وهداه إليه.

وقد يزيد في الكتب، ذكر الصفات، التي اختص الله تعالى بها كالمصور والمهدي والهادي والرشيد. والعجب أن قوماً يسمونها ألقاباً والألقاب مكروهة وإنما هي نعوت وصفات. وجعلوا مثل ذلك لولاة العهود، وخطب بها الخلفاء، قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، يخاطب المعتضد بالله، في قصيدة ذكر فيها ابنه علياً المكتفي بالله.

المكتفي بالله صاحب عهدنا ... فاجعله نحلته من الأسماء

فلما ولي المكتفي بالله الخلافة قال: قد سماني عبد الله باسم لا أريد غيره.

ولم يكن يدعى للخلفاء على المنابر بالنعوت، فيقال: اللهم أصلح عبدك وخليفتك عبد الله المنصور أمير المؤمنين ولا المهدي. وكان أول من دعي له بذلك محمد الأمين أمير المؤمنين، وجرى على ذلك إلى اليوم.

ولا يكاتب بالتصدير الإمام ولا ولي عهده ولا وزيره. فأما الإمام فيكتب بالتصدير إلى كل من خاطبهن من عامل حرب وخراج وقضاء، في الكتب المدونة المنعوتة، بالعهود والعقود وجباية الفيء، والحمول والنفقات والإقطاعات والإمارات والفتوح، وما جرى هذا الجرى، ويبدأ بنفسه. ولا يخاطب الإمام أحداً من هذه الطبقات بدعاء له في التصدير إلا ولي عهده، فإنه يدعي له بعد التصدير بالحفظ والحياطة.

مقال الخط

قال يحيى بن خالد البرمكي: " الخط صورة روحها البيان، ويدها السرعة، وقدمها التسوية، وجوارحها معرفة الفصول ". .

وقال أبو دلف: " القلم صانع الكلام، مفرغ ما يجمعه العلم ". .

وقال اقليدس: " الخط هندسة روحانية وإن ظهرت بآلة جسمانية. أخذه النظام " ، فقال: " الخط أصل في الروح وإن ظهر بآلة الجسد ". .

ومن فضل حسن الخط، أن يدعوا الناظر إليه إلى أن يقرأه وإن اشتمل على لفظ مرذول ومعنى مجهول.

وربما اشتمل الخط القبيح، على بلاغة وبيان، وفوائد مستطرفة، فيرغب الناظر عن الفائدة التي هو محتاج إليها لو حشة الخط وقبحه.

حدثنا أحمد بن إسماعيل، قال: كان مشايخ الكتاب وزهاد العمال يختارون أن يكون ما يرفعونه عن جماعاتهم، إلى دواوين السلطان بخط غير جيد، ومداد غير حالك، في صحف مظلمة، ليثقل على من يرد عليه من المتصفحين فيعدل عنها إلى غيرها مما لا يتعبه.

وزعم صاحب المنطق أن الأشياء موجودة في أربعة مواضع:

في الأشياء ذات المعاني في أنفسها، وفي العقول، والقول، والخط. وإن الخط دليل على ما في النفوس، وما في دليل على ما في الأشياء ذات المعاني، وما في الأشياء ذات المعاني مدلول عليه. وإن اثنين من هذه الأربعة طبيعيان، وهما الأشياء ذات المعاني وما في النفوس لا يتغيران. واثنان وضعيان، يتغيران بتغير اللغات والبلدان، وهما القول والخط. ومثال ذلك أن الذي في الجسمين، من التدوير والتربيع، موجود فيهما إذا نظر إليهما ناظر، انطبعت صورتها في نفسها، فصارا موجودين في موضعين، وإذا أراد أن يخبر غيره عما وجدته، احتاج إلى التعبير عما في نفسه باللفظ، فيكون اللفظ دالاً على ما في النفس، وإن كان المخبر حاضراً شافهه، وإن كان غائباً أداه إليه بالخط.

واللفظ والخط من هذا الوجه ضروريان، لا بد منهما في العبارة. ولو شاء قائل أن يفضل الخط على اللفظ، في هذه الحال، من قول صاحب المنطق، لقال: فالخط أتم من اللفظ فائدة، لأنه قد بلغ مبلغ المنطق، إذ كنا قد نناجي الحاضر بهما جميعاً، فنفهمه بكل واحد منهما، مثل ما نفهمه بالآخر، ولا نستطيع إفهام الغائب إلا بالخط، فللخط فائدتان من هذه الجهة، وليس للفظ إلا فائدة واحدة.

فإن قال معترض: فكيف يتهيأ أن يفهم الأعمى والأمي الخط؟ قيل له: ذلك من نقصان آلة، لا من نقصان آلتها، الخط، وإنما قولنا على تمام الآلة وأصل البنية الصحيحة، والعمى عرض دخل على الطبيعة وليس بأصل فيها، والأمي ممكن أن يتعلم الخط، فالنقيصة فيه عن علمه من ميله. وقد رأينا الشديد الصمم لا يفهم إلا بالخط.

ومن أحسن ما فضل به كلام المخاطب على الخط قول جالينوس " الكتاب كلام ميت، يتناوله قارئه كيف شاء، وكلام المخاطب حي، يمكن صاحبه أن يبصره حتى يبلغ به غرضه ". .

ومن الأعجوبة في الخطوط كثرة اختلافها والأصول واحدة كاختلاف شخوص الناس مع اجتماعهم في الصنعة،

حتى إن خط الإنسان يصير كحليته وبعته في الدلالة عليه، واللزوم له والإضافة إليه، حتى يقضي به الكاتب له وعليه .

وقد عجبت من بعض الكتاب قال: ادعى رجل من إلحاق الأنساب بالآثار والأشباه، فقال له القائف: أعجب والله من هذا ما يبلغنا من تمييزهم الخطوط وإلحاق كل خط بصاحبه أو ما ترى العازم على خيانة أو دفع حق، بغير خطه حتى إذا جحد لم ينسب عليه.

وحدثني الحسين بن يحيى الكاتب، قال: ادعى رجل على رجل مالا، وأن معه به رقعة بخطه، فجدد الرجل الخط، وجعل يكتب بين يدي الناس فيحكمون أن الخط ليس خطه. ثم تراضيا بسليمان بن وهب، وما يحكم به في ذلك، فأحضر الخط والرجل، فقال: اكتب فأملي عليه كتاباً طويلاً، ردد فيه مثل الحروف التي في رقعته، فتبين سليمان أن الخط خطه، وأنه صنع في كتاب الرقعة، ولم يكتب على طبعه، بحروف دلته على ذلك، فحكم عليه سليمان، فاعترف الرجل بالخط، وأدى المال وعجب من ذلك. فقبل لسليمان: كيف وقفت على ذلك؟ فقال: إنه يصنع في الرقعة كلها إلا في أحرف قذفها سجيته، ولم يحتس منها طبعه. ثم أنشد سليمان:

ولما أبت عيناى أن تطعم الكرى ... وأن يمنعا ذر الدموع السواكب
تشاءت كي أبغي لدمعي علة ... وكم مع لوعاتي بقاء الثاؤب

ومن مليح التعلل في الدم ما حدثنا به محمد بن دينار قال: حدثنا مهدي البهدي، قال: قال يسار لأبي العتاهية: يا عتي أنا والله أستحسن اعتذارك في دمعتك حيث تقول:

كم من صديق لي أسا ... رقه البكاء من الحياء
فإذا تأمل لا مني ... فأقول ما بي من بكاء
لكن ذهبت لأرتدي ... فطرفت عيني بالرداء

فقال أبو العتاهية: والله يا أبا معاذ ما لذت في هذا إلا بمعناك، ولا اجنيتته إلا من غرسك في قولك:

فقالوا: لم بكيت فقلت: كلا ... وهل يبكي من الطرب الجليد
ولكني أصاب سواء عيني ... عويد بدا له طرف حديد
فقالوا: ما لدمعها سواد ... أكلنا مقلتيك أصاب عود

والتشبيه يقع كثيراً بالخط الجيد الحسن، أما الخط الرديء فحكايته صعبة مُتنعة.

وحدثني يحيى بن البحتري قال: حدثنا أبي عن ابن الترخمان - وكان الواثق أنفذه إلى ملك الروم بمدايا - قال: وافقت لهم عيداً فرأيتهم قد علقوا على باب بيعتهم كتباً بالعربية منشورة، فسألت عنها، فقيل: هذه كتب المأمون بخط أحمد بن أبي خالد الأحوال استحسنا صورته وتقديره فجعلوا هكذا. فحدثت أنا بهذا الحديث، أبا عبيد الله محمد بن داود بن الجراح، فقال لي: هذا حق قد كتب سليمان بن وهب كتاباً إلى ملك الروم، في أيام المعتمد، فقال: ما رأيت للعرب شيئاً أحسن من هذا الشكل! وما أحسدهم على شيء حسدي إياهم عليه.

والطاغية لا يقرأ الخط العربي، وإنما راقه باعتداله وهندسته وحسن موقعه ومراتبه.

ووصف أحمد بن إسماعيل خطاً حسناً فقال: " لو كان نباتاً لكان زهراً. ولو كان معدناً لكان تبراً. أو مذاقاً لكان حلواً. أو شراباً لكان صفواً ". وقالوا: " القلم قسيم الحكمة " .

وقال أفلاطون: " الخط عقال العقل " . وقال أرسطاطاليس: " القلم العلة الفاعلة. والمداد العلة الهيولانية. والخط العلة الصورية. والبلاغة العلة النامية " . وقال بعض الملوك اليونانية " أمر الدين والدنيا تحت شيعين: قلم وسيف، والسيف تحت القلم " .

ما قيل في حسن الخط من المنظوم

فمن مليح ما قيل في ذلك، قول أبي تمام للحسن بن وهب، وقد قرأ كتاباً له فاستحسن خطه ولفظه من كلمه:
لقد جلى كتابك كل بث ... جو وأصاب شاكلة الرمي
فضضت ختامه فتبلجت لي ... غرائبه عن الخبر الجلي
وكان أغض في عيني وأندى ... على كبدي من الزهر الجني
وأحسن موقعاً عندي ومني ... من البشرية أتت بعد النعي
وضمن صدره ما لم تضمن ... صدور الغانيات من الحلبي
فكائن فيه من معنى بديع ... وكائن فيه من لفظ بهي
وكم أنجزت من بر جليل ... به ووعدت من وعد سني
كتبت به بلا لفظ كرية ... على أذن ولا خط قمي
فأطلق من عقال في الأمانى ... ومن عقل القوافي والمطي
وأهدي بعض الكتاب غلاماً كاتباً، إلى رئيس له، وكتب إليه بصفة الخط وغيره – وسمعت من يحكي أن فاعل ذلك عيسى بن فرخان شاه بإبراهيم بن العباسي الصولي، وكان عيسى يكتب له ولا أدري كيف صحته، لأنني لم أعتد بما لم أسمع من أفواه الرجال:

أقبل هدية شاكر ... تجزيه بالنزر الجليلا
بدرأ يضيء إذا نظرت إلي ... ه لم يألّف أفولا
إني بعثت به وكن ... ت بحسن موقعه كفيلا
لما رأيت بخطه ... حسناً يصيد به العقولا
كمنمنم الموشي قد ... سحب القيان به الذيولا
أو كالرياض بكى الحيا ... فيها فوسعها همولا
وتراه للمعنى اللطيف ... إذا أشرت به قبولا
لا مستعيداً منك إذ ... تملي عليه ولا ملولا
عرف المبادئ والوصول ... من الحكاية والفصولا
وصنوف ترتيب الدعاء ... وإن يقصر أو يطبلا
والهمز والممدود والم ... قصور والمثل المقولا
والفعل والأسماء وال ... مصروف منها والتقبلا
فاستكفه وأضمر له ... أن لا تريد به البديلا
يحمل بفضل لسانه ... وبيانه عنك الثقبلا

وأشده أحمد بن إسماعيل نطاحة لنفسه:
أضحكت قرطاسك عن جنة أشجارها من حكم مثمره
مسودة سطحاً ومبيضة ... أيضاً كمثل الليلة المقمره
ولي من قصيدة مدحت بها الوزير أبا القاسم عبد الله بن محمد بن عبيد الله بن يحيى:
ينظم دراً في قراطيسه ... أفدي أبا العباس من ناظم
يطلع أنواراً بما غضة ... بوابل من نقشه واسم
بنفسجاً أو مشبهاً لونه ... في أرض نسرين له فاحم
كالدرد في اللفظ وكالوش ... ي في الرقم أجدته يد الراقم
فقال أحمد بن إسماعيل:
وإذا نمت بناتك خطأ ... معرباً عن إصابة وسداد

عجب الناس من بياض معان ... تجتنى من سواد ذاك المداد
حدثنا محمد بن إبراهيم الأنصاري أبو الحسن، قال: وصف أحمد بن صالح جارية كاتبة فقال: " كأن خطها
أشكال صورتما. وكان مدادها سواد شعرها. وكان قرطاسها أديم وجهها. وكان قلمها بعض أناملها. وكان
بياتها سحر مقلتها، وكان سكينها سيف لحاظها. وكان مقطها قلب عاشقها ". وأنشدنا عبد الله بن المعتز لنفسه
يصف خطأ:

فدونكه موشى نمنتمه ... وحاكنه الأنامل أي حوك
بشكل يؤمن الإشكال فيه ... كأن سطوره أغصان شوك
ومثل هذا لأحمد بن إسماعيل نطاحة:
مستودع قرطاسه حكما ... كالروض ميز بينه زهره
وكان أحرف خطه شجر ... والشكل في أضعافها ثمره
أنشد محمد بن يزيد المبرد، قال: استعار محمد بن عبد الملك الزيات من الحسن بن وهب دفترأ فيه شعر أبي
يعقوب الخريمي، وكان معجباً به، فوجه الحسن به إليه، وكان بخط حسن، ثم وجه الحسن يطلبه منه، فوجه إليه
محمد بالنسخة التي كانت عنده واحتبس نسخة الحسن وكتب إليه:

إني نظرت ولا صواب لناظر ... فيما يهيم به إذا لم ينظر
فإذا كتابك قد تخير خطه ... وإذا كتابي ليس بالمتخير
وإذا وسوم في كتابك لم تدع ... شكاً لمعتسف ولا لمفكر
تنبيك عن رفع الكلام وخفضه ... والنصب فيه لحاله والمصدر
وإذا كتاب أخيك من ذا كله ... خلو فبئس لبائع أو مشتري
فاقبل كتاب أخيك غير منافس ... فيه وخل له كتابك واعذر
واعلم بأنك لا تزال مؤخرأ ... في العلم عند الناس ما لم تكسر
إني أرى حبس السماع على الذي ... شاركته فيه وكسر الدفتر

واستهدى أحمد بن إسماعيل دفترًا فيه حدود الفراء، فأهداه إلى مستهديه وكتب على ظهره :
خذه فقد سوغت فيه مشبهًا ... بالروض أو بالبرد في تفويفه
نظمت كما نظم السحاب سطوره ... وتأنق الفراء في تأليفه
وشكلته ونقطته فأمنت من ... تصحيفه ونجوت من تحريفه
بستان خط غير أن ثماره ... لا تجتنى إلا بشكل حروفه
وللخط صفات وتركيبات وأسماء مختلفات، تحد وتصنف ما يقال ذلك في النغم واللحن. فمنه الرياشي الخقق
والخفيف المطلق، وهو الذي يتعلق بعضه ببعض، ومنه منشور ومجموع .
وسئل بعض الكتاب عن الخط متى يستحق أن يوصف بالجودة، فقال: إذا اعتدلت أقسامه، وطالت ألفه ولامه،
واستقامت سطوره، وضاهى صعوده حدوده، وفتحت عيونته، ولم تشبه راءه نونه، وأشرق قرطاسه، وأظلمت
أنقاسه، ولم تختلف أجناسه، وأسرع إلى العيون تصوره، وإلى العقول ثمره، وقدرت فصوله واندجت وصوله،
وتناسب رقيقه وجليله، وخرج عن نمط الوراقين، وبعد عن تصنع الحدرين، وقام لكاتبه مقام النسبة والحلية،
كان حينئذ كما قلت في وصف خط :

إذا ما تحلل قرطاسه ... وساومه القلم الأرقش
تضمن من خطه حلة ... كنعش الدنانير بل أنقش
حروف تعيد لعين الكليل ... نشاطاً ويقراها الأخفش
وقال آخر:

أتاني كتابك يا سيدي ... فآنس نفساً به مبهجه
وكان بما ساق من فرحة ... وسكن من لوعة مزعجه
أبر وأمتع من ريطة ... على كل مائدة مدرجه
قد ذكرت في هذا الكتاب ما استحسنت من خط الجوارى: وقد كره أهل النبل من الناس وذوو الرأي منهم أن
يعلم النساء الخط، وجاء فيه النهي عن ابن عباس، أنه قال: " لا تسكنوا النساء العلالى ولا تعلموهن الكتابة " .
وقال حمزة بن أبي سلامة الكوفي:

جاء خط كأنه شعرات ... وسط خط ولم يصله عذار
أو كنعش الحناء في كف عذرا ... ءأباحتك لحه الأستار
يا كتاباً يكاد يضحك من جو ... هره في نظامه الطومار
وقال علي بن الجهم:

يا رقعة جاءتك مثنية ... فكأنها خد على خد
نبذ سواد في عذار كما ... ذر فتيت المسك في الورد
ساهمة الأسطر مصروفة ... من ملح الهزل إلى الحد

يا كاتباً أسلمني عبته ... إليه حسبي منه ما عندي
وقال أبو نواس:

زجرت كتابكم لما أتاني ... بمر سوانح الطير الجوّاري
نظرت إليه مجزوماً بزبر ... وفي ظهر ومحتوماً بقار
فغفت الظهر أحور قرطياً ... تركب صداغه سين العذار
وكان الشدو ذا زبر مصيب ... وكان الختم من رق العقار
فكيف تروني وترون زجري ... ألت من الفلاسفة الكبار

ما قيل في قبح الخط

قال الصولي أنشدني أحمد بن محمد بن إسحاق، قال: أنشدني علي بن محمد العلوي لنفسه:
أشكو إلى الله خطأ لا يبلغني ... خط البليغ ولا خط المرجينا
إذا هممت بأمر لي أزره ... سدت سماجته عني التحاسينا
وقالوا: " رداءة الخط زمانة الأديب ". ونظر عبد الله بن طاهر إلى خط بعض كتابه فلم يرضه، فقال: " نحوا
هذا عن مرتبة الديوان فإنه عليل الخط، ولا يؤمن أن يعدي غيره ". وقالوا: " رداءة الخط إحدى الزمانتين،
كما أن حسنه إحدى البلاغتين ".

حدثني طلحة بن عبد الله، قال: اعتذر رجل إلى محمد بن عبد الله بن طاهر من شيء بلغه عنه، فرأى خطه قبيحاً
فوقع في رقته: " أردنا قبول عذرك، فاقنطعنا عنه ما قابلنا من قبح خطك. ولو كنت صادقاً في اعتذارك
لساعدتك حركة يدك. أو ما علمت أن حسن الخط يناضل عن صاحبه بوضوح الحجة. ويمكن له درك البغية "

وكان أبو هفان عبد الله بن أحمد المهزومي من أقبح الناس خطأً، وكان يبتدئ الخط من رأس الورقة ويعوج
سطوره حتى يبقى آخر سطر في الورقة كلمة واحدة فرثاه يحيى بن علي فقال في مرثيه:

مع خط كأنه أرجل البط ... أو الخط في ذوي الفتيان

أنشدني العنزي الحسن بن علي في قبح الخط، وكان والله قبيح الخط والوجه، حسن العلم والعقل:

جزعت من قبح خطي ... وفيه وضعي وحطي

رجعت من بعد حذقي ... إلى تعلم حطي

؟ الوصاة بإصلاح الخط وآلته: قال بعض الرؤساء من الكتاب: " ارخوا ذوائب خطوطكم " ، يريد بذلك

الحروف المخطوطة، كالياء والنون والعين والحاء المنفصلات وما أشبههن .

قال الصولي: حدثني أبو الحسين محمد بن أحمد النيسابوري، قال: سمعت الحسين بن يحيى بن نصر الجرجاني

يقول: قال إبراهيم بن العباس الصولي لغلام كان يكتب بين يديه: " ليكن قلمك صلباً بين الدقة والغلط، ولا

تبره عند عقدة، ولا تجعلن في أنبوه أنبوه، ولا تكتن بقلم ملتو، ولا ذي شق غير مستو، واختر من الأقلام ما

يضر ب إلى السمرة. وأحد سكينك، ولا تستعملها لغير قلمك. وتعهد بالإصلاح يصلح. وليكن مقطك صلباً

ليمضي الخط مستويلاً لا مستطياً، وابر قلمك بين التحريف والاستواء. وإذا كتبت الدقيق فأمل قلمك إلى

إقامة الحروف لإشباع الخط، وإذا جللت فإلى التحريف. واعلم أن تبطين القلم شؤم، وتحريفه حرف، وهما دمار

الخط. واعلم أن وزن الخط مثل وزن القراءة، فأجود الخط أبينه، كما أن أحمد القراءة أبينها " .

وقال بعض الكتاب: " الحذق بالخط أن يقدر الكاتب بقلمه أجزاء حروفه وكلمه، وخاصة في طول الحرف لا في عرضه، ويفرق بين الحرف والحرف على قياس ما مضى من شرطه في قرب مساحته وبعد سياقته. ولا يقطع الكلمة بحرف يفرد في غير سطره. ويسوي إصلاح خطوطه كتابته ولا يغيره فيحليه بما ليس من زينته، ولا يمنعه حقاً فيخلف حليته، ويفسد قسمته.

ويستقبح أن يقع في الخط نوعان مختلفان، ويقوم في النفس من ذلك ما يقوم فيها من الشعر إذا اختلفت أعاريضه، وخلط فصيحته بمولده. وأحلى الخطوط الخقق اللطيف، المستدير الحروف، المفتوح الصادات والطآت، المختلس التآت والحات. ولا يحسن أن يجمع في الحرف مشقتان، ولا بين يائين معروفين ". قال الصولي: والمشتق مكروه، وخاصة في الكتاب إلى الرئيس، لأنهم يتأولون ذلك ضرباً من الاستخفاف بقدر المكاتب. كذلك قال إبراهيم بن العباس الصولي، وهو إمام من أئمة الكتاب يقتدى به فيها: وربما طغى القلم فوصل منفصلاً، وفصل متصلاً.

وقد يمشق الكاتب في حالين متضادين في أشد ما يكون نشاطاً، لشوق يده إلى الخط، وبعد عهدتها به، وتفلتها إليه، فتنازعه يده إلى ذلك، وتغلبه إلى الإسراع، فتجري على غلوائها، وتمضي على درتها، ولا تتمهل لرفع حرف ولا خفض آخر.

وتستروح أيضاً في حال التعب والكلال إلى المشتق، لما يلحق الأنامل من مشقة التعطف والتلوي على القلم، بتقريب بعض الحروف من بعض، وعطف شيء على شيء. فإذا كانت الكلمة على أربعة أحرف جعلت المشقة واسطة بين حرفين أولين وحرفين آخرين، مثل مقيد ومجلب، وعنهما وفيها. فإن كانت ثلاثة أحرف أوسطها ميم، كانت المشقة بين الميم والحرف. ولا يجوز أن يمشق بين حرفين أحدهما ميم. وإذا اتصلت باء وتاء ونون في كلمة، فكان على عدد أشكال السين والشين رفعت الوسطى، مثل بينك وبيتك. ولو لم تفعل ذلك، وسويت بين الثلاث، لجاءت الكلمة كأنها شك أو سك، ويحتمل الإثني السين والشين. وأن يمشقا ولا يحققا في كل المواضع؛ إلا في: بسم الله الرحمن الرحيم، لمعان أولها التعظيم لاسم الله تبارك وتعالى، والثاني ليتبين تحقيقك لذلك وتحسينك له، ولأن بسم الله الرحمن الرحيم أول ما يبتدئ الكاتب به وهو وافر النشاط، غير حسيير اليد، ولا جافي القلم؛ فليس له عذر في ترك التحقيق حينئذ ولا له حاجة إلى التروح. وكذلك يكره مشقهما منفصلتين، مثل الناس والباس، لا يكون معهما في هذه القسمة حرف يعضدهما. وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: " شر الكتابة المشق، وشر القراءة الهدرمة ". وأكثر سروات الكتاب يكرهون شق الكاف، وقد شقها بعضهم إذا كانت أول الحرف ومبتدأ السطر، ويستقبح شقها إذا كانت في آخر الكلمة منفصل أو متصلة، وذلك في مثل مالك وتارك.

ويستقبح أن ينقطع دعاء فيقع أوله في آخر السطر وبعضه في أول السطر الآخر، وكذلك الكنية والمضاف وغير ذلك، وما عمل بعضه في بعض، وما جعل اسماً واحداً وهو اثنان في الأصل، وذلك مثل أعزه الله في الدعاء، وعبد الله في الأسماء، وغلّام زيد في الإضافة، وتأبط شراً في العامل بعضه في بعض، وخمسة عشر فيما جعل الإسمان اسماً واحداً، ومعدّي كرب وحضرموت وأيادي سبأ ويد الدهر ويد المسند وهو الدهر أيضاً، وشدر مذر وقالي قلا، ومثل هذا كثير، وما ذكرناه منه يدل على سائره.

ما قيل في النقط والشكل والخط الدقيق

كره الكتاب الشكل والإعجام، إلا في المواضع الملتبسة من كتب العظماء إلى دولهم، فإذا كانت الكتب ممن دولهم إليهم ترك ذلك في الملبس وغيرهم، إجلالاً لهم عن أن يتوهم عنهم الشك وسوء الفهم، وتنزيهاً لعلومهم وعلو معرفتهم عن تقييد الحروف، ولولا أن الذي جددناه من ذلك في كتاب الرئيس إلى تابعه يجري مجرى الزيادة في الإيضاح له، ونفي الارتباب عنه، وإيجاب الحججة عليه فيما يؤمر به وينهى عنه، لكان الأحسن أن لا يستعمل في الحالتين معاً.

وقد رأى قوم أن تكون كتبهم إلى سلطانهم بأكبر الخطوط وأجلها، واختاروا الشكل والإعجام فيها. وحكوا عن بعض الخلفاء، أنه تأذى من إخلاء الكتب من ذلك في المؤامرات وغيرها. وقال الذين اختاروا ذلك لا نعرضهم للشكوك، ولا نكلفهم أعمال الفكر في المشكل، وأنه يجب أن نوضح لهم الشكوك ونضبط الحروف، بما يسبق معه المعاني إلى قلوبهم في أول وهلة.

ونسبوا الأصل في هذا إلى المأمون، وهذا ما لا يجمع المميزون عليه، ولا يلتفتون إلى ما يتأول فيه، لأن الأمر لو كان على ما يختاره من يشكل وينقط، لما وقع من الكتاب تصحيف، في كثير مما قرأه في مجالس الخلفاء، حتى أحصيت عليهم غلطات سقطوا بها في عصرهم، وبقي عارها عليهم، كالذي صحف من "حامرطي" جاضرطي، والذي صحف بين يدي المأمون "البريدي" فقال الثريدي، فأمر المأمون أن يطعم، وقال: أبو العباس جانع - يعني وزيره ابن أبي خالد - فغذوه. ثم قرأ فلان الحمصي فقال: الخبيصي، فقال المأمون: ما في طعام أبي العباس خبيص فأطعموه.

وقرأ كاتب عبيد الله بن زياد كتاب عبيد الله بن أبي بكرة أنه وجد بعض الخوارج في شرب فقال عبيد الله: وكيف لي بأن أكون ممن يشرب هو ونظراؤه إنما هو في سرب أي سرداب. وكتب رجل من أغبياء الكتاب إلى ساعد بن مخلد كتاباً فصر العين غيناً ونقطها من فوق ونقط الخاء من مخلد من أسفل فصيرها جيماً. فقرأ كتابه ساعد بن مخلد فلم يفتن لذلك، ووقع فيه فخرج إلى الديوان فرآه الناس فقال فيه بعض الشعراء:

رأيت الوزير كثير الشكوك ... بعيد الإفاقة من غفلته
فما عرف الجد من والد ... ولا اسم ابنه الفذ من كنيته

رأيت الكتابة قد عطلت ... ورسم البلاغة في دولته
وأغفل كاتب سليمان بن عبد الملك الإعجام في كتاب كتبه إلى عامله بالمدينة يأمره بإحصاء المخنثين فقال له:
احص من قبلك من المخنثين. فقرأه اخض، فخصى منهم جماعة حتى خصى الدلال، فقال: الآن والله أشبهنا النساء، هذا والله الختان الأكبر.

وأخرج كتاب عبيد الله بن سليمان على عامل مالا، فتظلم منهم، فوقع عبيد الله "هذا هذا" فقدر الرفع لبعده ذهنة أنه وقع هذا هذا أي حجة ثابتة كما تقول: أنت أنت، وأنا أنا، فأخرج التوقيع إليهم فقال: قد قبل حجتي، فلم يعرفوا ذلك، وجاءوا بالتوقيع إلى صاحب الديوان، فرده إلى عبيد الله بن سليمان واستأمره فيه، فما زاد عبيد الله على أنه شدد الذال، ووقع تحته: الله المستعان، كأنه نسب صاحب التوقيع إلى الهذيان. ومثل هذا كثير جداً وإنما جئنا بطرف منه.

حدثني يعقوب بن بيان قال: حدثني علي بن الحسين قال: لما أخرج بغا إلى منبج وقلدها، كان معه كاتب فقرأ عليه يوماً كتاب عامل بسمساط وأن فلاناً سقط عن بردونه، يريد عن بردونه، فقال له بغا: وما بردونه ويحك؟ فقال: جبل بين سمساط والروم وهو الحد بينهما، فلم يدر من أي شيء يتعجب! من تصحيفه أم من احتجاجة بما احتج به. وكتب بعض الكتاب إلى رجل كتاباً فدقق خطه فيه فكتب الرجل إليه: ما كاتبني وإنما عوذتني! شبه كتابه بالنعويذ. وكتبت إلى بعض إخواني كتاباً بقلم دقيق، فأنكر ذلك فكتبت إليه:

أنكر الخط إذ رآه ضئيلاً ... قال: هلا كتبت خطأ جليلاً

قلت لا تسبقن باللوم عذري ... بخل الخط إذا رأيته بخيلاً

وكذا الجسم إذ رأى علة الأمل ... حاظ من مقلتيك صار عليلاً

وقال آخر في نحوه:

يقول وقد كتبت دقيق خط ... إليه لم تجنبت الجليلاً

فقلت له: عشقت فصار خطي ... دقيقاً مثل صاحبه ضئيلاً

ومن مליح ما قيل في النقط والإعجام قول عبد الله بن المعتز:

غلالة خده ورد جني ... ونون الصدغ معجمة بخال

وقال أبو نواس يصف صغر أثار في قدر الرقاشي:

رأيت قدور الناس سوداً من الصلى ... وقدر الرقاشيين بيضاء كالبدر

بينها للمعتفي بفنائها ... ثلاث كنقط الناء من قلم الخبر

وما رأيت النقط والإعجام وقعاً أصح من مكان أوقعهما عصابة الجرجاني يهجو الحسن بن رجاء فإنه قال:

خوان الأمير معمي المكان ... له شبح ليس بالمستبان

يرى بالتوهم لا بالجنس ... وبالخبر الفذ لا بالعيان

دعا بالخوان على لؤمه ... لكيما يقال دعا بالخوان

فأما غضائره الواردات ... فأسماء ليست لها من معان

ونقط منها عراق عراق ... كم تعجم الصحف بالزرعفران

وتقول: قرمطت الخط أقرمطه قرمطة إذا قاربت بين حروفه. وحكى التنوخي: قرمط خطوه إذا قارب بينه.

ومن مليح ما قيل في النقط والشكل قول أبي نواس:

يا كاتباً كتب الغداة يسبني ... من ذا يطبق براعة الكتاب

لم ترض بالإعجام حين كتبت ... حتى شكلت عليه بالإعراب

أخشيت سوء الفهم حين فعلته ... أم لم تتق بي في قراءة كتاب

لو كنت قطعت الحروف فهمتتها ... من غير وصلكهن بالأنساب

وأردت إفهامي فقد أفهمتني ... وصدقت فيما قلت غير محاب

وقال التنوخي: يقال: "كتاب نزل الخط" إذا كانت الكتابة كثيرة فيه. ويقال: "رجل ذو نزل" حبر كثير. "

"وطعام له نزل" أي ربيع كثير. والعامية تقول: نزل وذلك خطأ قال لبيد:

ولن تعدموا في الحرب ليتاً مجرباً ... وذا نزل عند العطية نازلاً

ذا نزل ذا عطاء.

ونحو قول أبي نواس، قول العباس بن الأحنف:

فإذا الذي كتب الكتاب يسني ... قصداً فبالغ في الكتاب وأعجما

فإذا أردت هديت من إعجامة ... إني أراك حسبت أن لا أفهما

وتقول: شكلت الكتاب أشكله شكلاً. وشكلت الطائر شكولاً وشكلت الدابة شكالاً. وشكلت المرأة شكالاً.

وأشكل الأمر إشكالاً التيس. والقوم أشكال أي أشباه.

الحروف التي شبهت الشعراء بها

أنشدنا القاسم بن إسماعيل، قال: أنشدنا محمد بن إسماعيل لأبي النجم العجلي الراجز، وكان له صديق، يقال له

زياد يسقيه الشراب، فينصرف أبو النجم من عنده ثملاً:

أقبلت من عند زياد كالحرف ... تخط رجلاي بخط مختلف

كأنما قد كتبنا لام ألف

وقد عيب أبو النجم بهذا، فقليل: لولا أنه يكتب ما عرف صورة لام ألف كما عيب ذو الرمة في وصف ناقته:

كأنما عينها فيها وقد ضمرت ... وضمها السير في بعض الأضاميم

يريد كأن عينها دائرة ميم لتدويرها، والأضامة الغدير، يقال أضامة وأضام مثل قطاة وقطا وأضامة وآضام مثل أكمة

وأكام. فقليل: لولا أنه يكتب ما عرف الميم.

وحدثنا الغلابي قال: حدثنا عبد الله بن الضحاك، عن الهيثم بن عدي، قال: قرأ حماد الراوية على ذي الرمة

شعره قال: نراه قد ترك في الخط لأمأ، فقال له ذو الرمة: اكتب لأمأ فقال له حماد: وإنك لتكتب! قال: اكتب

علي فإنه كان يأتي باديئنا خطاط، فعلمنا الحروف تخطيطاً في الرمال، في الليالي المقمرة، فاستحسنتها، فثبتت في

قلبي، ولم تخطها يدي. ومن مליح ما قيل في التشبيه بلام ألف قول بكر بن النطاح:

يا من إذا درس الإنجيل ظل له ... قلب النقي عن القرآن منصرفاً

إني رأيتك في نومي تعانقني ... كما يعانق لام الكاتب الألفا

فقليل: قلب لجال القافية، لأن المعنى كما تعانق ألف الكاتب اللام لأن الألف تعطف على اللام. والذي عندي

أنه صواب لأن كل شيء عانق شيئاً، فإن ذلك الشيء أيضاً قد عانقه. وقال آخر في التشبيه بالهاء:

تنزو إذا مسها قرع المزاج كما ... تنزو الجنادب أوقات الظهرات

وتكتسي لؤلؤات في قلبها ... من الحباب شبيهات بهاءات

وفي مثله يقول أبو نواس:

ثم شجت، فأدارت ... فوقها طوقاً فدارا

كاقتران الدر بالدر ... ر صغاراً وكبارا

خلته في جنبات ال ... كاس واوات صغارا

وقال عبد السلام بن رغبان الحمصي:

فاصرف بصرفك وجه الماء يومك ذا ... حتى ترى نائماً منهم ومنصرفاً

فقام مختلفاً كالبدري مطلعاً ... والظبي ملتفتاً والغصن منعطفاً
كأن قافاً أديرت فوق وجنته ... واختط كاتبها من فوقها ألفاً
وقال عبد الله بن المعتز:

وكان السقاة بين الندامى ... ألغات بين السطور قيام
وقال أبو مقاتل الديلمي واسمه صالح:

شهدت لها لام الطراز بأنها ... كتبت وكانت قبل عند مهندس
فإذا أدارت قاف صدغ خلقتها ... أخذت قوام الشكل من إقليدس
وقال أحمد بن إسماعيل:

وسال عذاره من تحت صدغ ... فصارت لام ذاك الصدغ عينا
وقال بعض الأعراب يصف طوق القمرية:

كأن بنحرها والجيد منها ... إذا راقت عيون الناظرينا
مداداً لاقه قلم لطيف ... فصاغ به لطورق النحر نونا
وقال أبو نواس يصف ريش الصقر:

واجتاب من طرازه تفويفاً ... وشياً ترى بسيطه مكفوفاً
مثل استراق الكاتب الحروفاً
وقال أيضاً يصف منسراً:

في هامة علياء تمدي منسرا ... كعطفة الجيم بكف أعسرا
يقول من فيها بعقل فكرا ... لو زادها عيناً إلى فاء ورا
فاتصلت بالجيم فصارت جعفرأ
وقال غيره:

له من عيون الوحش عين مريضة ... ومن خضرة الريحان خضرة شارب
كأن غلاماً ماهراً خط خطه ... فجاء كنصف الصاد من خط كاتب
وقال غيره:

صدغ على خدك أبكاني ... ورد لي همي وأحزاني
كأنما قومه صائغ ... وخطه كاتب ديوان
وقال آخر:

وقد بدا صدغه من فوق وجنته ... كمشقة عطفت من نقطة الرء
وقال محمد بن عبد الملك الزيات:

ماذا توارى ثيابي من أخي دنف كأنما الجسم منه بقعة الألف
وقال الشرواني الكوفي:

أما ومطال ذي خلف ... به أمسيت ذا شغف
وحرمة من خضعت له ... بلا ميل ولا لطف

خضوع فتى لمالكة ... بذل الرق معترف
لقد أصبحت ذا كلف ... بخال غير ذي كلف

كأن معاهد الرنا ... ر قد عقدت على ألف
ولي من آخر قصيدة إلى بعض الرؤساء أسأله حاجة:
سبقتما في حلاب المجد بينكما ... فرط التجارب ميمون ليمون
فأتبع النون عيناً في المقال ولا ... تؤخر الميم عن عين وعن نون
وقال عبد الصمد بن المعذل لعلي بن عيسى بن جعفر وقد شرب دواء:
وقد أهديت ريجاناً ظريفاً ... به حاجيت مستمعي مقالي
وريجان النبات يعيش يوماً ... وليس يموت ريجان المقال
ولم تك مؤثراً ريجان شم ... على ريجان أسمع الرجال
وقال هشام بن عبد الملك لأعرابي: أنظر كم على هذا الميل من عدد الأميال؟ وكان الأعرابي لا يحسن أن يقرأ،
فمضى ونظر ثم عاد فقال: رأيت كراس المحجن، متصلاً بحلقة صغيرة، تتبعه ثلاثة كأطباء الكلبة، تفضي إلى هنة
كأها رأس قطاة بلا منقار. ففهم بصفته أنها خمسة.

وقال أبو نواس يشبه نحوه بقلة حروف لا:
يا عاقد القلب مني ... هلاً تذكرت حلا
تركت جسمي عليلاً ... من العليل أقل
يكاد لا يتجزأ ... أقل في اللفظ من لا
وقال الصولي وأنشدني ابن الخراساني:
مستهتر بالصدود موصوف ... مؤلف للحاظ مألوف
كأنه في اعتداله ألف ... ليس لها في الكتاب تحريف
وقال أبو الهندي، وهو أشعث اليربوعي، يخاطب همارة كانت تبيعه الخمر، فإذا أعطته كوزاً خطت عليه خطأً،
فرآها تزيد عليه فقال:

إذا ما بعني كوزاً بخط ... فخطي ما بدا لك أن تخطي
وزيدي ثم زيدي ثم زيدي ... على وغلطي بالله شرطي
وصبي في أبيريق صغير ... كأن الأذن منه رجع خطي
وقال يهجو ابن حجام:

يا ابن من يكتب في الأ ... رقاب من غير دواة
لم يكن يكتب فيها ... غير خط الألفات

ما جاء في وصف القلم من الكلام المنثور

قد ذكرنا من فضل القلم، في أول الكتاب، ما يعني عن إعادته .
وقال أحمد بن يوسف: " القلم لسان البصر يناجيه بما استتر عن الأسماع، إذا نسخ حله، وأودعها حكمه " .
وقال ابن المقفع: القلم بريد القلب " وقال أبو دلف: " القلم صائغ الكلام ويفرغ ما يجمعه العلم " .
وقال الجاحظ: " الدواة منهل، والقلم ماتح، والكتاب عطن " .
وقال سهل بن هارون: " القلم أنف الضمير، إذا رفع أعلن أسرار، وأبان آثاره " .
وقال عمرو بن مسعدة: " الأقالام مطايا الفطن " .
وقال المأمون: " لله در القلم، كيف يحوك وشي المملكة " .
وقال جالينوس: " القلم طبيب المنطق " فوصفه من جهة صناعته .
وقال أحمد بن عبد الله: " القلم راقد في الأفئدة. مستيقظ في الأفواه " .
وقيل: " عقول الرجال تحت أقلامها " .
وقال آخر: " القلم أصم يسمع النجوى. وأخرس يفصح بالدعوى. وجاهل يعلم الفحوى " .
وقال أحمد بن يوسف: " عبرات الأقلام في حدود كتبها أحسن من عبرات الغواني في صحون خدودها .
وقال العتابي: " الأقالام مطايا الأذهان " .
وقال عبد الحميد: " القلم شجرة ثمرتها الألفاظ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة " .
وقيل: " بري القلم تروى القلوب الظمئة " .
وقال ابن المقفع: " القلم بريد القلب يخبر بالخبر، وينظر بلا نظر " .
وقال ابن أبي دؤاد: " القلم سفير العقل، ورسوله الأنبل، ولسانه الأطول وترجمانه الأفضل " .
وقال ابن أبي دؤاد: " القلم الدنيا والآخرة " .
وقال آخر: " بنوء القلم تصوب الحكمة " .
وقال ابن ميثم: " من جلالة شأن القلم أنه لم يكتب لله تعالى كتاب قط إلا به " .
وحدثني الحسين بن عمر ويعقوب بن بيان، قالوا: حدثنا علي بن الحسين بن عبد الأعلى، قال: كتب عبد الله بن طاهر إلى إسحاق بن إبراهيم، من خراسان إلى بغداد أن يوجه إليه بأقلام قصبية، كتاباً نسخته .

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإننا على طول الممارسة لهذه الكتابة التي غلبت على الاسم، ولزمت لزوم الوشي، فحلت محل الأنساب، وجرت مجرى الألقاب. وجدنا الأقلام القصبية أسرع في الكواغد وأمر في الجلود. كما أن البحرية منها أسلس في القراطيس، وألين في المعاطف، ولكل عن تمريقها والتعلق بما ينبو من شظاياها ونحن في بلاد قليلة القصب رديء ما يوجد منها، فأحببت أن تتقدم في اختيار أقلام قصبية، وتتوق في انتقائها قبلك، وطلبها من مظانها، ومرامها من شطوط الأثمار، وأرجاء الكروم. وأن تتيمم باختيارك منها الشديدة الخبس، الصلبة الغص، النقية الجلود، الغليظة الشحوم، المكتنزة الجوانب، الصيقة الأجواف، الرزينة الوزن فإنها أبقى على الكتاب، وأبعد من الحفاء. وأن تقصد بانتقائك الدقاق القضبان، اللطاف المنظر، المقومات الأود، الملمس العقد، " فلا يكون فيه التواء عوج ولا أمت. وضم الصافية القشور، الخفيفة الأتن، الحسنة الاستدارة " ، الطويلة الأنايب، البعيدة ما بين الكعوب، الكريمة الجواهر، المعتدلة القوام، يكاد أسفلها يهتز من

أعلاها، لاستواء رؤوسها بأصولها، المستحكمة ييساً، القائمة على سوقها، قد تشربت الماء في لحائها، وانتهت في النضج منتهاها، لم تعجل عن تمام مصلحتها، وإبان ينعها، ولم تؤخر إلى الأوقات المخوفة عاهاتها من خصر الشتاء، وعفن الأنداء. فإذا استجمعت عندك أمرت بقطعها ذراعاً ذراعاً قطعاً دقيقاً تتحرز معه من أن تتشعث رؤوسها وتنشق أطرافها. ثم عبأت منها حزماً فيما يصونها من الأوعية، وعليتها الخيوط الوثيقة، ووجهتها مع من يحتاط في حراستها وحفظها وإصاها، إذ كان مثلها يتوان فيه لقله خطرها. واكتب معه بعدتها وأصنافها، وأجناسها وصفاتها، على الاستقصاء؛ من غير تأخير ولا توان ولا إبطاء، إن شاء الله.

فأجابه إسحاق - ووجه إليه بالأنايب - وليس بالجواب مما سمعته، إنما وجدته في كتاب: أتاني كتاب الأمير بما أمر به، ولخصه من البعثة إليه، بما شاكل نعته، وضاهى صفته، من أجناس الأقاليم. فتيمنت بغيته قاصداً لها، واستنهجت معالم سؤاله آخذاً بها، فأنفذت منها حزماً نشأت بليف السقيا، وحسن التعهد والبقيا. لم تعجل بأخداجها، ولا بودرت قبل إنضاجها. فهي مستوية الأنايب معتدلتها، متفقة الكعوب مقومتها. لا يرى فيها أمت زور، ولا وسم صعر. وقد رجوت أن يجدها الأمير عند إرادته، وحسب بغيته. إن شاء الله.

حدثنا أحمد بن إسماعيل قال: أهدى مهد أقلاماً وكتب: أنه لما كانت الكتابة قوام الخلافة، وزينة الرياسة، وعمود المملكة، وأعظم الأمور الجليلة غاية؛ أحببت أن أتخفك من آلتها بما يخفف عليك محمله، وتقل مع ذلك قيمته، ويكثر نفعه، ويصغر خطره. فبعثت إليك أقلاماً من القصب النابت في الأعداء، المغدوة بماء السماء. كاللآلي المكونة في الصدف، والأحجار المحجوبة بالسدف. تنبو عن تأثير الأسنان، ولا يشبهها غمز البنان. قد كستها طبائعها جوهرًا كالوشي الخطير، وفرند الديداج المنير. فهي كما قال الكميت:

وبيض رقاق صفاح المتون ... تسمع للبيض فيها صريرا

مهنة من عتاد الملوك ... يكاد سناهن يغشي البصيرا

وكقداح النبل في ثقل أوزانها، وقضب الخيزران في اعتدالها، ووشيج الخطي في أطرادها، كأنما خرطت في شهر لا ستدارتها. تمر في القرطاس كالبرق اللامح، وتجري في الصحف كالماء السائح. أحسن من العقبان، في رقاب القيان.

وقيل: المختار من بري القلم أن تطيل السنين وتسمنهما، وتحرف القطعة وتيمنها، وتفرق بين السطور، وتجمع بين الحروف منها. ولا تقط مبلولاً حتى يجف لئلا يتشظى.

حدثنا الحسين بن يحيى، قال: انكسر قلم لبعض الكتاب فرثاه بأبيات فقال:

ما عيب طولاً ولم يعب قصراً ... عري من دقة ومن عظم

كان إذا ما تضايقت سبل ال ... لفظ كفاني مخارج الكلم

لا حصر القول عند خطبته ... وليس في قوله بمتهم

وجاء يوماً عبد الله بن المعتز في المسجد الجامع إلى أبي العباس أحمد بن يحيى ليسلم عليه، فقام له وأجلسه مكانه، فداس ابن المعتز قلماً فكسره فلما جلس قال لمن حوله:

لكفي وتر عند رجلي لأنهما ... أثارت قتيلاً ما لأعظمه جبر

فعجب الناس من سرعة بديته!.

أهدى رجل إلى إبراهيم بن المدبر قلماً وكتب إليه: قد وجهت إليك - أعزك الله - بمفتاح العلوم باد جملها، تام
كاملها، فهي كما قال الشاعر:

ليس فيها ما يقال له ... كملت لو أن ذا كمالاً
كل جزء من محاسنها ... كائن من حسن مثلاً

حدثنا أبو العباس الربيعي، قال: حدثنا الطلحي، قال: حدثنا أبو العباس الربيعي، قال: حدثنا الطلحي، قال:
حدثني أحمد بن إبراهيم قال دخل إلى الرشيد أعرابي فأنشده أرجوزة - واسماعيل بن صبيح يكتب بين يديه
كتاباً، وكان أحسن الناس خطاً، وأسرعهم يداً - فقال الرشيد للأعرابي: " صف هذا " ، فقال: " ما رأيت
أطيب من قلمه. ولا أثبت من حلمه " . ثم قال:

رقيق حواشي الحلم حين تنوره ... يديك الهوينا والأمور تطير
له قلماً يؤسى ونعمى كلاهما ... سحابتة في الخاليتين ذرور
يناجيك عما في ضميرك لحظة ... ويفتح باب النجاح وهو عسير
فقال الرشيد " قد وجب لك يا أعرابي عليه حق هو يقضيك إياه، وحق علينا فيه نحن به. ادفعوا إليه دية الحر "
، فقال له: " على عبدك دية العبد " .

ومن مليح ما في القلم ما أنشدناه محمد بن زياد الزبدي، لعمر بن إبراهيم بن حبيب العدوي يرثي قلماً له
سرق:

يا عين جودي بواكف سجم ... جودي بدمع مشيع بدم
لا تطعمني عقدة وكيف وقد ... أسيت حرى لفرجة القلم
جودي على الناطق البليغ إذا اس ... تنطق من غير منطق وفم
لا حصر القول عند خطبته ... وليس في حكمه بمتهم
حلت عرى الخزم منه جانحة ... ضمت بها عربها إلى العجم
أصفر في حمرة كأن على ... جلده برودة كلون دم
إذ أهما والقرطاس لاح له ... مع عليه حنادس الظلم
ما عيب طولا ولم يعب قصراً ... عري من دقة ومن عظم
إن قدح العائبون فيه بأن ... صم فأكرم به أخوا صمم
كان إذا ما تضايقت سبيل ال ... لفظ كفاني مخارج الكلم
حسبك منه لسان مطلع آل ... ناظر في ظاهر ومكتتم
ينبيك إن جلع الغبي بما ... أضمر من خبر عالم فهم
فاذهب حميداً كما قد فقدت وما ... فقدت منا مناعت الكرم

حدثني يعقوب بن بيان الكاتب قال: قال بعض الكتاب: " القلم الرديء كالولد العاق " .

وقالوا: " القلم أحد اللسانين، والعلم أحد الأوبن، والثبث أحد العفوين، والمطل أحد المعين وقلة العيال أحد
اليسارين، والقناعة أحد الرزقين، والوعيد أحد الضربين، والإصلاح أحد الكسبين، والرواية أحد المهاجرين،
والهجر أحد الفراقين، واليأس أحد النجحين، والمزاح أحد السباين " .

وقال: " القلم لسان اليد " .

وفاخر صاحب سيف صاحب قلم، فقال صاحب القلم: " أنا أقتل بلا غرر، وأنت تقتل على خطر " . فقال صاحب السيف: " القلم خادم السيف، فإن بلغ مراده وإلا فإلى السيف معاده. أما سمعت قول أبي تمام: السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب وقال آخر: " مساق أمر الدنيا بسين وقاف فيقال سق " يريد السيف والقلم. حدثني وكيع قال: حدثني جعفر بن كوال قال: سمعت بشر بن الحارث يقول: " لسان الإنسان قلم ملكه الموكل به ومداده، وقرطاسه جلده، يملي عليه كتاباً إلى ربه. فلينظر الإنسان قبل فوت النظر ماذا يملي " .

ذكر ما قيل في القلم من الشعر

قال أبو تمام:

لك القلم الأعلى الذي بشباته ... تصاب من الأمر الكلى والمفاصل
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه ... وأري الجنى اشتارته أيد عواسل
له ريقه طل ولكن وقعها ... بآثاره في الشرق والغرب وابل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب ... وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت ... عليه شعاب الفكر وهي حوافل

إذا استغزر الذهن الذكي وأقبلت ... أعاليه في القرطاس وهي سوافل
وقد رفدته الخنصران وسددت ... ثلاث نواحيه الأنامل
رأيت جليلاً شأنه وهو مرهف ... ضنى وسميناً خطبه وهو ناحل
وقال أحمد بن إسماعيل: أحسن قدود القلم، أن لا يجاوز به الشبر بأكثر من خلقتة، وأن تبعد منه الأنامل
الثلاث، ويؤخذ من أوسطه لأنها إذا أدنيت منها لم تؤمن أن يماس القرطاس بها فتسوده.
وقد مدح الشاعر بعض الكتاب بنحو من وصفه هذا فقال:

شريف الصناعة محمودها ... تساعده الكف والمقول

يقيم من الخط أشكاله ... ويأخذ أقلامه من عل

وقال غيره يصفه بمقدار الشبر:

له ترجمان يطرب اللفظ أحرص ... على حذو شبر أو يزيد على الشبر

له منخر في غير وجه ويهتدى ... بمر جناحين استعيرا من الفكر

إذا خر يوماً ساجداً عند وحيه ... تضعع أصحاب المثقفة السمر

يدمر أقواماً وينعش معشراً ... ويصدر آراء الملوك وما يدري

قال أبو بكر: ولي من قصيدة في بعض الرؤساء أذكر هذا المعنى:

يتفادى أعداؤه من خطيب ... بيديه يروض عقلاً وفكراً

ناحل الجسم ليس يعرف من كا ... ن نعيمياً وليس يعرف ضرا

ناطق في الورى بلفظ سواه ... مذهب اللون قد تطرف جرا
قلم يجلب السواد ويجري ... مع جري المداد نفعاً وضرا
ضامر الكشح مخطف الجيد م ... ذ حذف شابوره وقدر شبرا
ويد ما تزال تنتشر وشياً ... في قرطيسه وتشر درا
وقال الفصفاضي:

في كفه أحرص ذو منطق ... بقافه واللام والميم
شبر إذا قيس ولكنه ... في فعله مثل الأقاليم
محرف الرأس ومسوده ... كإبرة الروس من الريم
قال أبو بكر محمد بن يحيى الصولي: قلت قول عدي بن الرقاع العاملي، في صفة طرف قرن الرشا، وهو ولد
الظبي، وتشبيهه بالقلم قال عدي:

تزجي أغن كأن إبرة روقه ... قلم أصاب من الدواة مدادها
ويروى أن جبريراً قال - وكان حاضراً - لعدي وهو ينشد هذه القصيدة، لما أنشد صدر البيت: " تزجي أغن
كأن إبرة روقه ". رحمته وقلت هلك فلما قال: " قلم أصاب من الدواة مدادها " حالت الرحمة حسداً. وأخذ
البيت الثاني من هذه الثلاثة أبيات ابن الرومي فقال يهجو ويصف هن امرأة:
يملاً السبعة الأقاليم طراً ... وهو في إصبعين من إقليم
ولحمدان الدمشقي من أبيات:

أهدت له الحية الرقشاء جلدتها ... لما استعارت لساناً منه مقدودا
وله في نحو هذا البيت:

الأيمن نفتته وشق لسانه ... وله إذا لم تجره اطراقه
فكأنه النضناض إلا أنه ... من حيث يجري سمه ترياقه
وقال غيره من أبيات:

ولأقلامهم زئير مهيب ... يزدرى عنده زئير الأسود
أرغبتهم عن القنا قصبات ... مغنيات عن كل جيش مقود
والقرطيس خافقات بأيد ... يهيم كمرهوب خافقات البنود
وكتبت إلى أبي علي محمد بن علي في أيام ابن الفرات الأولى بقصيدة منها:
مشف على الرأي نظار عواقبه ... إذا تشابه وجه الرأي واجتجبا
في كفه صارم لانت مضاربه ... يسوسنا رغبا إن شاء أو رهبا
السيف والرمح حدام له أبداً ... لا يبلغان له جداً ولا لعباً
يرمي فريضهما عن كل مجترم ... ويعصيان على ذي النصح إن غضبا
تجري دماء الأعادي بين أسطره ... ولا يحس له صوت إذا ضربا
فما رأينا مداداً قبل ذاك دماً ... ولا رأينا حساماً قبل ذا قصباً
وقد شككنا فما ندرى لشربته ... أنظم الدر في القرطاس أن كتبنا

وقال آخر في سفر طويل:

وعاشق تحت رواق الدجى ... أغرى به الحيرة فقدان
أعرب عن مكنون إضماره ... أحوى لطيف الكشح خمسان
يتيح غدراً لثرى جادها ... من باكر الوسمي هتان

يحوك وشياً نقش ديباجه ... بلاغة تسدى وبرهان
وفيه للناظر أعجوبة ... يكسو عراة وهو عريان
كأنما الدنيا بأقطارها ... له إذا ما أجبت ميعان
تجري به خمس مطايا له ... مختلفات القصد أقران
كأنها من ضم تركيبها ... من خالص الفضة قضبان
له لسان مرهف خده ... من ريقة الكرشف ريان
في دقة المعنى إذا أغرقت ... القول في التدقيق أذهان
كأنما يفتر عنه إذا ... ما افتر للمنطق ثعبان
ترى بسيط الفكر في نظمه ... شخصاً له حد وجثمان
كالخلي إلا أنه أحرف ... بيض المعاني وهي سودان
كأنما يسحب في إثرها ... ذبلاً من الحكمة سحبان
لولاه ما قام منار الهدى ... ولا سما بالملك ديوان
وقال أبو يزيد عتاب بن ورقاء:

لك القلم الذي لم يجري إلا ... أبان لك العدو من الولي
إذا استعرفته ألقى سواداً ... على القرطاس أبهر من حلي
فيا طوبى لمن أدلى إليه ... يا حسان وويل للمسي
شباة سنانه في الحرب أمضى ... وأنفذ من شباة السمهري
فقال: سلاح مثلك وهو يعزى ... سلاح الفارس البطل الكمي
وأنشدني عون:

وأسمر طاوي الكشح أحرص ناطق ... له ذملان في بطون المهارق
إذا استمطرته الكف جاد سحابه ... بلا صوت إرعاد ولا صوت بارق
كان اللآلي والزبرجد نظمه ... ونور الأفاحي في بطون الحدائق
كان عليه من دجى الليل حلة ... إذا ما استهلكت مزنة للصواعق
إذا ما امتطى غر القوافي رأيتها ... مجللة تمضي أمام السوابق
وأنشدني عون للفضفاضي:

لك القلم الذي لم يجر يوماً ... لغاية منطلق فكبا لعي
ومبتسم من القرطاس يأسو ... ويخرج وهو ذو بال رخي

فما المقدار أمضى من شياه ... ولا الصمصام سيف المذحجي
قال أبو بكر: ولي من قصيدة، مدحت بها ابن الفرات، في وزارته الأولى:

في يديه محكم في ذوي اللب ... وما فيه إن تبينت لب
شهد السيف أنه السيف حقاً ... ناقص القدر زائد الحد غضب
وسيوف العداة انهد جداً ... حين تعدى بدرة الموت حرب
من رأى مثل ما وصفت حساماً ... نافذ ضربه وما منه ضرب
كل يوم له ولم يلق كيداً ... من دمء العصاة ولع وخضب
قال أبو بكر: ولي من قصيدة طويلة مدحت بها بعض الرؤساء:

في يدك الأعلى محلى به ... تواصل الضرب مع الطعن
إن نبه السيف لأمر له ... جاء إليه مرعد المتن
ينظر ما يهوى بلا ناظر ... ويسمع السر بلا أذن
يذري دموع العاشق المبتلى ... يطعن من يهواه في الطعن
فيضحك الملك بكاء له ... لم يك من غم ولا حزن
ترى لديه فصحاء الورى ... إذا امتطى القرطاس كاللكن
سيف على الأعداء لكنه ... لم يغتمضه ظلم الجفن
وأنشدني أحمد بن محمد بن إسحاق:

ما ضر من أضنى بهجرانه ... قلب كتيب القلب حرانه
لو فرج الكربة عن مدنف ... تشقه لوعة أحزانه
برقعة ينظمها كفه ... نظم لآليه ومرجانه
بمرهف الأحشاء ذي حلة ... موشية ترفع من شانته
لعابه عيش وموت إذا ... جاد به تفلج أسنانه
إذا امتطاه بشبهاته ... كشف أسراراً بإعلانه
يركض في ميدان قرطاسه ... ركض جواد وسط ميدانه

حدثنا أحمد بن أبي الموج البازي قال: أنشدني الحسين بن عبد الله العبدى الهمداني لنفسه:
حين نادى حاديهم بانطلاق ... وجرى بالفراق طير الفراق
ورأى العاشقون أن لا معين ... هو أجدى من عبرة واحتراق

ظلت أشكو صباقي وإنني ... متحل بحيلة العشاق
ناحل جسمه كأن يد الي ... ن سفته منه بكأس دهاق
أخرس في لسانه للعطايا ... والمنايا عتاد ريق مراق
فإذا مجه أتى بلعاب ال ... ليل حلو الخطاب مر المذاق
وشبهاته ثلاث حوته ... هن منه مفاتيح الأرزاق

يمتطيهن ثم يرتجل القول ... لفصل الخطاب في الآفاق
فتراه بمصر يحكم ما شا... وبالصين وهو خلف العراق
وله في صفة القلم أبيات من قصيدة في بعض الرؤساء:
له القلم الأعلى الذي سار عدله ... وتدبيره ما بين بر إلى بحر
يشابه حد السيف رقة حده ... وينسب لونا في المثقفة السمر
ويبلغ ما لم يبلغا في عدوه ... إذا رد من طي الدواة إلى النشر
تصرفه منه ثلاث أصابع ... وكف براها الله للنفع والضر
إذا ما حوته وامتطى بطن مهرق ... تسطر نوراً فوق أرض من الدر
إذا أظلم الدهر الخزون بصرفه ... أبان له إحسانه وضح الفجر
قال أبو بكر: وكنت أنشدت العباس بن الحسن قصيدة استحسناها الناس، ووصفوا بيتاً فيها عنده أخذه
ذكرويه:

المستبيح سن القرامط راية ... لما استباحوا حرمة الإسلام
أجرى المداد بكيدهم فكأثماً ... أجرى دماهم على الأقلام
حدثني محمد بن أحمد الأنصاري، قال: دخل عيسى بن فرخان شاه على جارية وهي تكتب خطأ حسناً فقال:
سريعة جري الخط تنظم لؤلؤاً ... وينشر دراً لفظها المترشف
وزادت لدنيا حظوة ثم أقبلت ... وفي إصبعها أسمر اللون مرهف
أصم سميع ساكن متحرك ... ينال جسيمات المدى وهو أعجف
وقال بعض الوراقين يصف قلمه ويمدحه ويذكر استغناه:
يا مجبري من سطوة الأمراء ... وعميدي في نوبة اللأواء
والذي صان حر ديباجة الوج ... ه عن الأسخياء والبخلاء
والذي لا أزال أنعت في الشعر وأطريه غاية الإطراء
وسفيري بما أريد من الأم ... ر إلى إخوتي من الأدباء
والذي لا يزال يجبر في المهرق عن سالف الأنباء
وإذا ما ابتعثته استن كالثا ... قب يفري دجنة الظلماء
وقال عبد الله بن المعتز في القاسم بن عبيد الله:
قلم ما أراه أو فلك يج ... ري بما شاء قاسم ويدور
راكع ساجد يقلب قرطا ... ساً كما قلب البساط شكور
وفيه يقول:

عليم بأعقاب الأمور كأنه ... لمختلفات الظن يسمع أو برى
إذا أخذ القرطاس خلت يمينه ... يفتح نوراً أو ينظم جوهرها
وقال ابن الرومي فأحسن:
لعمرك ما السيف سيف الكمي ... بأخوف من قلم الكاتب

له شاهد إن تأملته ... ظهرت على سره الغائب
أراه المنية من جاني ... ه فمن مثله رهبة الراهب
ألم تر في صدره كالسنان ... وفي الردف كالمهرف القاضب
وقال أبو أسامة الكاتب كاتب عياض:
وأعجف مشتق الشبابة مقلّم ... موشي القرى طاوي الحشا أسود الفم
تبين خفي السر آثاره لنا ... ويعرب عن غير الضمير المكتم
يؤدي صحيح القول عنه مخاطباً ... به العين دون السمع لا بالتكلم
إذا استغرته الكف فاضت سجاله ... من الفكر فيض الريح المتغيم
وقال صالح بن عبد الملك بن صالح يخاطب كاتب أبيه:
أجريت فوق صدور كتبك دامغاً ... يبيكه ضحك الفكر والأوهام
ميتاً تشافهه القلوب بعلمها ... يبدي ضمائرهما بغير كلام
مستعجماً فإذا اللواحق ترجمت ... عنه أتى بفصاحة الأعجام
تجري سناكب بغير حوافر ... فيديرنا ورداً بغير لجام
قال: ودخل محمد بن ذؤيب العماني الراجز على الرشيد، فأنشده أرجوزة يصف فيها فرساً شبه أذنيه فيها بقلم
محرف:

كأن أذنيه إذا تشوفا ... قادمة أو قلماً محرفاً
فقال له الرشيد: دع كأن، وقل: "تحال أذنيه إذا تشوفا" حتى يستوي الإعراب.

ما قيل في القلم وبريه

حدثنا أحمد بن إسماعيل بن الخصيب قال: من كلام مسلم بن الوليد الأنصاري، في صفة بري القلم قوله: "حرف قطة قلمك قليلاً ليتعلق المداد به، وأرهف جانبيه ليرد ما استودعته إلى مقصده، وشق في رأسه شقاً غير عاد ليحتسب الاستمداد عليه، ورفع من شعبيته ليجمعها حواشي تصويره. فإذا فعلت ذلك استمد القلم برشفه بمقدار ما احتملت طيبته فحينئذ يظهر به ما سداه العقل، وأحمه اللسان، وبلته اللهوات، ولفظته الشفاه، ووعته الأسماع، وقبلته القلوب".

ويقال: بریت القلم أبریه برياً فأنا بار له والقلم مبري. وكذلك بریت القدح والمغزل وهو أخذك منهما حتى يتقوما على إرادتك قليلاً قليلاً، لأنك إن لم تفعل ذلك برفق قطعته.
وقال عبد الله بن مصعب:

قد طالما قد بروا بالجوذ أعظمتنا ... بري الصناعات قداح النبع بالسفن
وقلما يلبث شيء على البري إذا لم يك صلباً قوياً في جنسه، فلذلك يستجاد للقلم القصب. ألا ترى إلى قول كثير:

ولن يلبث الواشون أن يصدعوا العصا ... إذا لم يكن صلباً على البري عودها

ويقال لجميع ما يسقط من قلم وسهم ومغزل إذ بري البراية.
وقال أوس بن حجر يصف صانعاً لقوس يبريها بمبراته:
على فخذيه من براية عودها ... شبيه سقى البهمى إذا ما يفتلا
ويقال لما بين العقدتين من القصب أنبوب، والجمع أنابيب.
وكان بعض الكتاب يجيد الخط ولا يجيد برى القلم، فيبرى له. وبعضهم يرى أن في ذلك مهنة يترفع عنها.
وقال بعض الكتاب:
لم ترني قط بارياً قلماً ... في بريه كل مهنة وضعه
ما كل من يحمل الحسام لكي ... يردي به سنه ولا طبعه
وقد عيب بعض الكتاب بأنه لا يجيد برى القلم فليل فيه:
دخيل في الكتابة ليس منها ... فما يدري دبيراً من قبيل
إذا ما رام للأنبوب برياً ... تنكب عاجزاً قصد السبيل
فكائن ثم من قطع رحيب ... لأصعبه ومن قلم قتيل
وكان اشتقاق القلم من التقليم، وهو القطع ومنه تقليم حافر الدابة ومنه قلمت ظفري. وكل شيء تبرى به
شيئاً وتقطعه فهو مبرة والجمع مبرار، والمبرة السكين الذي يرى به القوس ثم جعلوا ما يقطع مبرة. وقال امرؤ
القيس يصف قرن نور:

فكر إليه بمبراته ... كما خل ظهر اللسان الجمر
الجر الفاعل، وأصل الإجرار أن يشق طرف السان لسان الفصيل حتى لا يرضع أمه، وخله جعل فيه خلالاً.
وذكر امرؤ القيس أن الثور طعن كلب الصيد ففعل به هكذا. وكان الوجه أن يقول: فكر إليه بمبراته فخله كما
خل، فاستغنى عن قوله " فخله " لعلم المخاطب بما يريد.
والبراية ما سقط من القلم إذا بريته والليطة ما كان من قشر الأنبوب والجمع ألياط مثل عنب وأعناب وليط
وألياط مثل جهل وأجمال. والشظية ما تشظى من الأنبوب والجمع شظايا وشظي القلم يشظى شظاً إذا صارت
مع أحد سنيه شظية عنه. وأصل التشظي في اللغة " التفرق والتشقق " وشظي الفرس تفرق عصبه وتشقق.
وقالوا: شظية وشظايا مثل بلية وبلايا وشظاة مثل نواة ونوى لا يكتب إلا بالألف لأنه يقال ثلاث شظايا
وشظوات. وحفى القلم يحفى وحفاء وحفاية وكذلك في غيره.

ومن وصف الكتاب

حدثني القاسم بن إسماعيل قال: رأى ابن شبل البرجمي إبراهيم بن العباس وهو يكتب فقال:
ينظم اللؤلؤ المنثور منطقه ... وينظم الدر بالأقلام في الكتب
حدثنا الحسن بن علي الكاتب قال: حدثني سليمان بن وهب قال: رأني أبو تمام وأنا أكتب كتاباً فقال: " يا أبا
أيوب كلامك ذوب شعري ". وأنشدني محمد بن الفضل بن الأسود:
إذا شئت يوماً أن ترى بهم الوغى ... بلا هزطي ولا سل قاض
فحرك عنان الطرف نحو معاشر ... وجوههم في المنتقى كالكواكب

يهزون صفر الحطيات كأنها ... أنامل ربات الحدور الكواعب
إذا أرغفوها زينت برعافها ... قراطيس تحكى واضحات الترائب
وشبيه بالبيت الثالث قول القصافي يصف جارية كاتبة:

أفدي البنان وحسن الخط من علم ... إذا تقمص بالحناء فالكتم
كأنما قابل القراطس من يدها ... شبيها ثلاثة أقلام على قلم
حدثنا الحسين بن علي البامطاني لسليمان بن وهب قال، وكان قلمه يصير من شدة اعتماده عليه:
إذا ما حددنا وانتضينا قواطعاً ... أصم الذكي السمع منها صريرها
تظل المنايا والعطايا شوارعاً ... تدور بما شئنا وتمضي أمورها
يساقط في القراطس مها بدائعاً ... كمثل الآلي نظمها ونثيرها
يقود أبيات البنان بفطنة ... تكشف عن وجه البلاغة نورها
إذا ما الخطوب الدهم أرخت ستورها ... تجلت بنا عما تسر ستورها
وأنشدنا يعقوب بن بيان:

لك حزم يلقي الخطوب بعزم ... مستفل بكل أمر جليل
ولسان في الحفل غير كليل ... بالغ في جوامع وفضول
ويد لم تزل من العز والسل ... طان بين التوقيع والتقبيل

الجزء الثاني

ما قيل في الدواة

أنشدنا أحمد بن محمد بن إسحاق، قال: أنشدني أبو هفان:
آلة المجلس الظريف إذا ما ... كنت فيه الدواة والأقلام
يتهادى فيه البلاغة والآ ... داب منتورها معاً والنظام
قال أبو بكر: أما المشهور مما قيل فيها فشعر بعض الكتاب، وقد أهدى دواة محلاة بذهب، وهي من الأبنوس:
قد بعثنا إليك أم المنايا ... والعطايا نجية الأحساب
تنزياً بصفرة وكذا الزنج تنزياً عجباً بصفر الثياب
ريقها ريق نحلة مع صاب ... حين يجري لعابها في الكتاب
في حشاها لغير حرب حراب ... هن أمضى من مرهفات الحراب
وقال غيره:

وما أم أولاد ولما تلدهم ... عقام إذا ما استنجدت لم تكلم
وأولادها خرس ويأتيك عنهم ... أحاديث من أيام طسم وجرهم
إذا استعجلوا في حالة أرقلت بهم ... أثافي من لحم كريم ومن دم

وشكا بعض الكتاب أن دواته بلا مداد، فقال لبعض أخوانه يطلب منه مدداً:
أنا أشكو إليك أن دواقي ... وهي عوني في حاجتي وعتادي
عطلت من مدادها واستعاضت ... يقق اللون من حلوك السواد
لم تزل من بنات حام فصارت ... من بني يافث بغير ولاد
أنت للحادثات عدة صدق ... خلق أن تمدها بمداد
وأنشدنا علي بن الصباح:
دواة حديد زين الله خلقها ... بكف فتى حلو الكتابة حاذق
تدير العطايا والمنايا حراهما ... إذا طعنت في شاكلات المهارق
ولأحمد بن إسماعيل في وصف الدواة، إلا أن وصف القلم يتقدمها في أبياته:
في كفة مثل سنان الصعده ... أرقش بز الأفعوان جلده
يلتهم الجيش اللهام وحده ... كأنه متشح ببرده
لو صادم الطرد المنيف هذه ... أو صافح السيف الحسام قدده
يأوي إلى طير له معدة ... يمزج فيه صبر بشهده
ترضعه من مقلة مسوده ... يمدّها جار كثيف العده
كأنه الليل إذا استمده ... مقلنتها مكحولة بنده
قوله: " كأنه الليل إذا استمده " ن يشبه قول ابن الرومي يصف حبر أبي حفص الوراق:
كأنه ألوان دهم الخيل ... حبر أبي حفص لعاب الليل
يسيل للإخوان أي سليل ... بغير ميزان وغير كيل
وعلى ذكر الخبر فإننا نذكر قول بعض الوراقين:
ولجة بحر أجم العباب ... بادي تياره يزخر
تنور إذا جاش من قعرها ... بذورتها حمم تفطر
فأكرم ببحر له لجة ... جواهرها حكم تنثر
وقال بعضهم: إنما سمي الحبر حبراً لأنه تحبر به الأخبار. أنشدني الحمدوني لنفسه:
ثنتان من أدوات العلم قد ثنتنا ... عنان شأوي عما رمت من وهممي
أما الدواة فأودى حملها جسدي ... وقلم المال مني حرفة القلم
وحبرت في صحف الحرف محبرة ... تذود عني سوام المال والنعم
ونحوه، وليس هو، مما قصدناه في كتاب الكتاب، ولكنه اعترض فجئت بما أحفظ فيه لغير الحمدوني:
جمعت حروف الحرف في الحبر كلها ولول شقائي ما عرفت المحابرا
وقد زاد بي الإخفاق في كل موطن ... لحملي في كمي إليه الدفاترا
وسطر في أثناء قلبي تعللا ... طلابي لما أن عرفت المساطر
وفي مثله:

لما أخذت حروف الخط حرفني ... عن كل حظ وجاءت حرفة الأدب
أقوت منازل مالي حين أوطنها ... منحيا سفظ الآداب والكتب
وقال آخر:

أدمى البكا جفني والمآقي ... وظلت ذا هم وذا احترق
ما أن أرى في الأرض والآفاق ... أدنى ولا أشقى من الوراق
إذا أتى في القمص الأخلاق ... رايته مطنزة العشاق
يفرح بالأقلام والأوراق ... كفرحة الجندي بالأرزاق
قال أبو بكر: حدثني أحمد بن محمد الأنصاري، قال: قيل لوراق: ما تشتهي؟ قال: قلماً مشاقاً، وحبراً براقاً،
وجلوداً رقاقاً.

وقال بعض المحدثين في محبرة:

ولقد غدوت إلى المحدث آنفاً ... فإذا بحضورته طباء رتع
وإذا طباء الأنس يكتب كل ما ... يملئ وتحفظ ما يقال وتسمع
يتجادبون الحبر من ملمومة ... بيضاء تحملها علائق أربع
من خالص البلور غير لونها ... فكأنها سيج يلوح ويلمع
إن نكسوها لم تمل ومليكتها ... فيما حوته عاجلاً لا يطمع
ومنى أمالوها ارشفت رضاها ... أداه فوها وهي لا تتمتع
فكأنها قلب رصين سره ... أبداً ويكتم كل ما يستودع
يمتاحتها ماضي الشبابة مذلق ... يجري بميدان الطروس فيسرع
رجلاه رأس عندها لكنه ... تلقاه برجفأة ساعة يطلع
فكأنه والحبر خضب رأسه ... شيخ لوصل خريدة يتصنع
لم لا ألاحظه بعين جلاله ... وبه إلى الله الصحائف ترفع

وقد قال بعض الكتاب: حكم الدواة أن تكون متوسطة في قدرها، نصفاً في قدها، لا باللطيفة جداً فتقصر
أقلامها، ولا بالكبيرة فيثقل حملها. لأن الكاتب - ولو كان وزيراً مائة غلام مرسومون بحمل دواته - مضطر في
بعض الأوقات إلى حملها ووضعها ورفعها بين يدي رئيسه، حيث لا يحسن أن يتولى ذلك منها غيره، ولا
يتحملها عنه سواه. وأن يكون عليها من الحلية أخف ما يتهيأ أن يتحلى الدوي به من وثاقة ولطف صنعة،
ليأمن أن تنكسر أو تنفصم منها عروة في مجلس رياسة أو مقام محنة. وأن تكون الحلية ساذجة، لا حفر ولا ثبات
فتحمل القذى والدنس، ولا نقش عليها ولا صورة لأن ذلك من زي أهل التوضع، لا سيما في آلة يستعان بها
مثل هذه الصناعة الجليلة المستولية على تدبير المملكة، وإن أحرقت الفضة حتى يكون سوادها أكثر من بياضها،
فإن ذلك أحسن وأبلغ في السرو وأشبه بقدر من لا يتكثر بالذهب والفضة.
وقد حكى عن المأمون أنه رأى على أسنان دابة له فضة فنهى عن استعمالها وقال: إنما يتكثر بالذهب والفضة
من قلا عنده.

وكذلك قال المنصور للمهدي وقد رأى تحته سرجاً لجامه مفضض: أترى الناس لا يعلمون أنك من وراء كل

شيء تريده فأنزل هذا اللجام.

حدثنا أحمد بن يزيد المهلبلي قال حدثني أبو هفان قال سألت وراقاً عن حاله فقال " عيشي أضيق من محبرة، وجسمي أدق من مسطرة، وجاهي أرق من الزجاج، ووجهي عند الناس سواداً من الحبر، وحظي أحقر من شق القلم، وبدني أضعف من قصبه، وطعامي أمر من العفص، وسوء الحال ألزم لي من الصبغ ". فقلت له: عبرت عن بلاء ببلاء.

وقال آخر:

ترى الرشا والحبل أنبوبة ... يقلب ماء اسوداً من قليب
روض الندى يبيت زهر اللهى ... وهذه تنب زهر القلوب
وسئل وراق عن حاله فقال:

إذا كنت بالليل لا أكتب ... وطول النهار أنا ألعب
فطوراً يبطلني مأكلاً ... وطوراً يبطلني مشرب
فإن دام هذا على ما أرى ... فبيني أول ما يجرب

ولا يستحسن أن يكثر عدد الأقلام في الدواة، فأحسن ذلك أن تكون أربعة إلى ما دون ذلك. وقد قيل فيه:

لا أحب الدواة تحشى يراعا ... تلك عندي من الدوي معيبة
قلم واحد وجودة خط ... فإذا شئت فاستزد أنوبه
هذه قاعدة الشجاع عليها ... سيره دائماً وتلك جنيبه

ويقال: دواة ودويات لأدنى العدد وفي الكثير دوي. وقال أحمد بن ثور يصف ناقته:

كأن توشي أقرانها ... إذا ما نشحن مخط الدوي

نشحن: عرقن. وجمع الدوى دوي. وأراد بمخط الدوي مخط أقلام الدوى، فاستجار ذلك لأن المعنى لا يشتهبه كقولهم عز وجل: " وأسأل القرية " يريد أهل القرية.
وأنشد القراء:

لمن الدار كخط بالدوى ... أقفر المعروف منها وانمحي

ويقال: حليت الدواة أحليها تحلية وحلية حسنة وجمع الحلى الحلي مثل ثدى وثدي. وقالوا: حليت الرجل إذا أخذت علامات من جسده، أحليه تحلية، وهذه حلية الرجل وجمعها حلى وحلى بضم الحاء وكسرها قد قرئ " من حليهم عجلاً " و " من حليهم " . ودواة ودوى مثل نواة ونوى، ودواة ودوى مثل فتاة وفتى، ودواة ودويات مثل حصاة وحصيات، ويقال دواة ودوايا وهي رديئة، قال الشاعر:

إذا نحن وجهنا إليكم صحيفة ... ألقنا اللوايا بالدموع السواجم

إلافة الدواة

يقال ألفت اللواة أليقها إلافة، إذا أدت كرسفها حتى تسود، وألاقوا بينهم كلاماً أي أداروه بشرعة، ومنه القراءة: " إذ تلقونه بألسنتكم " ، أي تديرونه بسرعة، وقال بعض المفسرين: تلقونه تسرعون منه إلى ما لا

تعلمون. وقال ابن الرقيات:

جاءت به عيسى من الشام تلق

أي تسرع وقراها يحيى بن يعمر. وحقيقة ألاق الدواة في اللغة إنما هو أدار المداد فيها حتى لصق وعلق، ومنه قولهم لا يليق هذا بهذا أي لا يلصق به ولا يعلق.

قال أبو بكر: حدثنا محمد بن القاسم، قال: حدثنا الأصمعي قال: قدمت على الرشيد في بعض قدماتي فقلت: " ما ألاقني الأرض حتى رأيت أمير المؤمنين " ، فلما خرج قال: ما معنى ألاقني قلت: ما أالصقتني بها ولا قبلتني. والصواب المختار أن يقول ألت الدواة فأنا مليق لها وهي ملاقة.

وحكي عن ابن دريد: ألت الدواة ولقت من لاق يليق فهو لائق وذلك مليقة من هذا والمصدر لاق ليقا وليوقا. وما لاقت المرأة عند زوجها أي ما لصقت بقلبه. ولاق الدواة صارت هي نفسها مليقة. وفلان ما يليق شيئاً أي ما يثبت في يده شيء. وأنشدنا محمد بن الفرج أبو جعفر المعري قال: أنشدنا محمد بن أحمد الطوال عن أبي الحسن الكسائي في لاق الدواة ليقاً:

لو يكتب الكتاب عرفك فرغوا ... ليق الدوى وانفذوا الأقراما

الكرسف وما قيل فيه

قال أبو بكر: الكرسف القطن خاصة دون غيره، ثم صاروا يسمون كل شيء وقع موقعه في الدواة من صوف وخرقة كرسفاً قال طرفة:

وجاءت بصراد كأن صقيعه ... خلال البيوت والمنازل كرسف

وكرسفت الدواة جعلت لها كرسفاً والجمع كراسف. قال وهب الهمداني:

سحاب حكى القرطاس لون صبيره ... وعاد به جو العواصف أكلفا

إذا كتبت فيه يد البرق أسطراً ... يلبس وجه الأرض بالثلج كرسفا

ما قيل في المداد

قال بعض الكتاب: ليكن الكرسف في نهاية ما يكون من السواد، ولتكن الليقة التي نهاية اللين والنعمة، والأجود أن تكون مستديرة، فإن كان كذلك أجزأ الكاتب أن يسمها روق القلم، ولا يلحقه كلفة ولا إبطاء في الاستمداد. وإن حفر الموضع الواقع على الليقة من الغطاء وغشي بأرق ما يكون من الفضة، حتى إذا أطبقت الدواة تجافي ذلك الموضع عن الليقة، فلم ينله شيء من سوادها، كان ادعى إلى النظافة والسلامة وأكثر الدرر لا تسلم منها ما لم تكن على ما وصفنا.

ويعنى بتعهد الليقة والكرسف بالملح والكافور، وإن غيرت في كل يومين أو ثلاثة كان آمن لتغيرها وربما أغفل ذلك فاستكرهت الرائحة وظهر من نتنها ما ينجل له. وقيها ذلك على بعض الكتاب حتى ظن رئيسه أنه أبحر فشكا ذلك إلى نديم له فقال النديم: ما عرفت ذلك منه، ولكن لعله أغفل ذلك من أمر دواته وتفقدتها. فقال الرئيس: عذره في بخره أبسط عندي منه في نتن دواته، لأنه في ذلك مضطر وهو في هذا مختار. ثم نبهه نديمه على

ذلك فلم يجر عليه بعد. وقال بعض الشعراء في هذا المعنى يهجو كاتباً:
دخيل في الكتابة ليس منها ... له فكر تعد ولا بديه
تشاكل أمره خلقاً وخلقاً ... فظاهره لباطنه شبيه
كأن دواته من ريقه فيه ... تلاق فنشرها أبداً كريبه
وقال أحمد بن إسماعيل حذراً من هذا:
كأنما النقس إذا استمده ... غالية مذوقة بنده
قال وأنشدنا أحمد بن إسماعيل للحسن بن وهب:
مداد مثل خافية الغراب ... وقرطاس كرقراق السراب
وأقلام كمرهفة الحراب ... وألغاز كأيام الشباب
وأحمد بن إسماعيل الذي يقول:
وإذا نمت بنانك خطأ ... معرباً عن إصابة وسداد
عجب الناس من بياض معان ... يجتنى من سواد ذاك المداد
والمداد كل شيء يمد به هذا أصله قال الأخطل:
رأت بارقات بالأكف كأنها ... مصابيح سرج أوقدت بمداد
يريد بدهن أمدت به كثر الاستعمال لما تمد به الدواة فقلب كل شيء غيره فإذا قيل: مداد، لك يعرف شيء
غيره وقال بعض الكتاب يمدح المداد:
من كان يعجبه في صحن عارضه ... مسك يطيب منه الريح والنسما
فإن مسكي مداد فوق أتملتي ... إذا الأصابع مني مست القلما
وقال آخر:
وما روض الربيع وقد زهاه ... ندى الأسحار يأرج بالعادة
بأعيق أو بأطيب من نسيم ... تؤديه الألافة من دواة
وقالوا: " المداد خضاب الرجال " . وقال آخر:
إنما الزعفران عطر العذارى ... ومداد الدواة عطر الرجال
حدثني يعقوب بن بيان قال: كتب إبراهيم بن العباس يوماً كتاباً فأراد محو حرف منه، فلم يجد سبيلاً فمحا
بكمه، فقبل له في ذلك، فقال: المال فرع والقلم أصل، فهو أحق بالصون منه، وإنما بلغنا هذه الحال واعتقدنا
الأموال بهذا القلم والمداد ثم قال:
إذا ما الفكر أظهر حسن لفظ ... وأداه الضمير إلي العيان
رأيت حلى البنان منورات ... تضاحك بينها صور المعاني
ويقال: مددت الدواة جعلت فيها مداداً وكل شيء زدت فيه فإنك تقول: مددته أمدته مدداً. قال الله تعالى: "
والبحر يمدد من بعده سبعة أبحر " . وإذا أمرت قلت: مد الدواة بكسر الدال. ومد الدواة تتبع الضمة الضمة
وإمداد الدواة. ولا يقال أمددت إلا ما كان على جهة الإعانة كقولك: أمددته بمال ورجال، ومنه قوله عز
وجل: " أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين " . ومنه: " أمددناكم بأموال وبنين " . أي أعناكم وقربناكم.

ويقال مداد ونقس بالسین وكسر النون، والكثير أنقاس.
وقال حميد بن ثور:

لمن الديار بجانب الحمس ... كمخط ذي الحاجات بالنفس
وأنشدنا محمد بن موسى الرازي حمد بن مهران:
لا تجرعن من المداد ولطخه ... إن المداد خلوق ثوب الكاتب
وأهجم بذلك إنه لك زينة ... هبة من الله الجواد الواهب
لولا المداد ويسرنا بدليله ... ما صحح في مال حساب الحاسب
ولما تبينت الأمور لطالب ... ولكان شاهدنا شبيهه الغائب

الخبير واشتقاقه

قال أبو بكر: ذكرنا أشعاراً قيلت في الخبير في باب الدواة لاتصالها بها، كاتصال التوريق بالكتابة والوراقين بالكتاب، وبالخبير تكتب المصاحف والسجلات وما يراد بقاؤه. وإنما سمي الخبير حبراً لتحسينه الخط من قوهم حبرت الشيء تحبيراً وحبرته حبراً زينته وحسنته. والاسم الخبير كقولك طحنته طحنناً. في الحديث " يخرج من النار رجل حسن الخبير والسبر " وقال ابن أحرر:
لبسنا حبره حتى اقتضينا ... بأعمال وآجال قضينا
وقيل: الخبير مأخوذ من الحبار وهو أثر الشيء كأنه أثر الكتابة وقال:

ولم يقلب أرضها البيطار ... ولا لجليه بها حبار
أي أثر. وقال آخر:

لقد أثمرت بي أهل فيد وغادرت ... بجسمي حبراً بنت مصان باديا
أي أثراً. ويقال محبرة ومحبرة وهما أفصح ما قيل فيها. وحبر فلان كتابه: حسنه، وكذلك نمنمه ونمقه ورشقه.
قال مرقش:

الدار قفر والرسوم كما ... رقص في ظهر الأديم قلم
ويقال: رقص كذبه أي حسنه حتى يقبل قال رؤبة:
عازل قد أولعت بالترقيش ... إلي سراً فاطرقي وميشي
وسموا طفيلاً الغنوي محبراً لتحسينه شعره. وقيل: سمي بذلك لقوله يصف برداً:
سماوته أسمال برد محبر ... وسائره من أتحمي معصب

القرطاس وما يكتب فيه

تسمي العرب ما يكتب فيه القرطاس، وجمعه قرطيس، ومهرفاً وجمعه مهارق، وصحيفة وجمعها صحائف،
وسفراً والجميع أسفار، قال الله عز وجل: " يحل أسفاراً "، وقد نزل القرآن بجمعها إلا المهرق. قال الله
تعالى: " تجعلونه قرطيس "، وقال تعالى: " ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس "، وقال تعالى: " إن هذا لفي

الصحف الأولى " . والعرب تشبه المنزل، إذا خلا ودرجت عليه الريح وصار أرضاً، بالمهرق. قال الأعشى:
سلا دار ليلي هل تبين فتنتق ... وأنى ترد القول بيضاء سملق
وأنى ترد القول دار كأنها ... لطول بلاها والتقادم مهرق
وشبه أبو نؤاس الناقة البيضاء بالقرطاس فقال:

واحتازها لون جرى في جلدها ... يقق كقرطاس الوليد هجان
قيل: خص قرطاس الوليد لأنه معه كالرسم لم يكتب فيه بعد، والهجان أيضاً الكرام من الإبل وغيرها وما أعلم
أحداً استوفى في وصف القرطاس إلا جعفر بن حمدان المصري الكاتب فإنه قال:

في يديه من القراطيس كالمز ... نة جادت بواكف مدرار
كالملاء الرحيض كالبيض بيض الهند كالبيض كالمياه الجواري
كالمسراب الرقراق في عنفوان الصيف نصف النهار في أيار
ما تبالي أجلت عينك فيه ... حين يطوي أم في حضور العذاري
يسبح الخط فيه عفوفاً فما يك ... بو بو عث فيه ولا بجبار
حدثني أبو تذكون القاسم بن إسماعيل قال: سمعت عمك أحمد بن عبد الله بن العباس، المعروف بطماس، يقول
- وكان حسن البلاغة: القرطاس أمره ما لم تكحله مل الدواة.

ومن مליح الأخبار التي ذكر فيها القرطاس ما حدثني به أحمد بن محمد الأنصاري، قال حدثنا أبو العيلاء عن
الجماز قال: أراد أبو نؤاس أن يكتب إلى إخوانه له، فلم يجد شيئاً يكتب فيه فحلق رأس غلامه، وكتب عليه ما
أراد، وفي آخرها كتب: وإذا قرأتم الخطاب فحرقوا القرطاس قال: فردوه بلا جلدة رأس. ورأى جرير رجلاً
أسود عليه ثياب جد فقال:

كأنه لما بدا للناس ... أير حمار لف في قرطاس
وقال أبو نؤاس:

لم يقو عندي على تخريق قرطاسي ... إلا فتى قلبه من صخرة قاسي
إن القراطيس من قلبي بمنزلة ... تكون كالسمع والعينين في الراس
لو لا القراطيس مات العاشقون معاً ... هذا بغم وهذا كم بوسواس
فأما الكرايس فواحدها كراسة، قال الأصمعي: كرسى الكتب والورق جعلت شيئاً منه إلى شي وأكرس الغنم
اجتماع بعرها وبولها في مواضعها حتى يتطارق بعضها إلى بعض، قال العجاج:
يا صاح هل تعرف رسماً مكراً

قال أبو عبيد: أكرس البعر عليه فهو مكرس، ويروى مكراً كأنه أكرس فهو مكرس وأصله ما ذكرت لك.
وتكارس ورق الشجر تحته وقع بعضه فوق بعض.

ويقال دفتر ودفتر. وما سمع شيء في اشتاقه إلا أنه عربي فصيح. قال جنبد بن المثني الطهوري:
هل لا بجحر يا ربيع تبصر ... قد قضى الدين وجف الدفتر
ويروى الدفتر. وأنشدني الحسين بن يحيى:

هل تذكرين إذا الرسائل بيننا ... تأتيك في الشجر الذي لم يعرس

إذ سر نفسي في يديك ومثله ... لك في يدي من الفصيح الأخرس
وقال ابن الأحنف:

صحائف عندي للعتاب طويتها ... ستنشر يوماً والعتاب طويل
عتاب لعمرى لا بنان يخطه ... وليس يؤديه إليك رسول
آخر:

جاء الرسول بقرطاس فهيج لي ... شوقاً وأحببت منه كل قرطاس

فيه معاتبه منها تذكري ... عهد الوصال كأني غافل ناس
وقال:

أتاني كتاب منمليكي بخطه ... فما أعظم النعمى وما أصغر الشكرا
فظلت تناجيني بما في ضميره ... أنامل قد صاغت بأقلامها سحرا
قال وكتب إلى فوز كتاباً أغضبها:

كتبت وليته شلت يمينه ... ولم أكتب إليك بما كتبت
كتبت وقد شربت الكأس صرفاً ... فلا كان الشراب ولا شربت
وقال ابن الأحنف أيضاً:

أهدت إلى صحيفة محتومة ... نفسي الفداء لخط ذاك الكاتب

ففكتها فقرأت ما قد حبرت ... فإذا مقالة مستزيد عاتب

حدثني أبو عبد الله الأسباطي قال: كان رجل من الكتاب يهودي مغنية ويكاتبها، فكانت تحرق كتبه وتأمرة

بتحريق كتبه، فكتب إليها: إني أحتفظ بكتبك وتهاوين بكتبي فتحرقينها فكتبت إليه:

يا ذا الذي لام في تحريق قرطاس ... كم مر مثلك في الدنيا على راسي

الحزم تحريقه إن كنت ذا نظر ... وإنما الحزم سوء الظن بالناس

إذا أتاك وقد أدى أمانته ... فاجعل كرامته دفناً بأرماس

وشق قرطاس من تموى وكن حذراً ... يا رب ذي ضيعة من حفظ قرطاس

فكتب إليها: الصواب رأيك وخرق رقاعها.

قط القلم

يقال: قططت القلم أقطه قطاً. والقط والقدر متقاربان، لأن القط أكثر ما يستعمل فيما وقع السيف في عرضه،

والقدر لما وقع في طوله. ومنه قولهم: كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، إذا علا بسيفه شيئاً

قده، وإذا اعترضه قطه. وقد يحمل هذا على هذا. وقال عمرو بن معد يكرب:

فكم قط سيفي من قونس ... غداة التقينا ومن مفرق

ومط حاجبيه ومد بمعنى. وإنما جاز ذلك في قد وقط ومد ومط لأن نخرج الطاء والدادل من مكان واحد من

أصول الشايات وطرف السان، كما يقال: طين لازب ولازم، لأن مخرج الباء والميم من الشفة من مكان واحد.

المقط

هو المقط بكسر الميم فأما المقط فالموضع الذي يقط من رأس القلم. وأحسن المقاط وأمكنها المربع كهيئة فص النرد زائداً عليه في الطول والعرض ساذج الطرفين، فإذا كان على هذا الشكل رحب مطاه، ووطؤ قراه، وكان أملاً لليد، وأمكن للقط. وفيه يقول بعض الكتاب:

الحمد لله شكراً ... يعلو الورى وأحط

وغادرتني مداها ... منها كأني مقط

لم يبق مني إلا ... صبر جميل فقط

وقال بعض الكتاب:

فإن تكن الخطوب فرين مني ... أديماً لم يكن قدماً يغط

فإن كرائم الأقلام تخفى ... فيصلح من تشعثها المقط

وقال بعض الكتاب: إذا قططت ولم تسمع لقطتك صوتاً كصوت نبض القسي، ووقعة كوقعة غضب المشرفي، فأعد فإن قلمك بعده حف. وأكثر ما يقع ذلك والقلم رطب بمداده، وإنما القطة تصلح مع جفافه. وأنشدني بعض أصحابنا لنفسه في المقط من أبيات خاطب بها بعض الكتاب أولها:

يا ذا الكتابة قد بعثت بمرضع ... سوداء قد خرطت من الإظلام

بل ناسبت لون الخطوب وضمنت ... كشافاً لها بحضانة الأقلام

معها مقط قد تحلى بينها ... شبه الصدود بدا لخلق غرام

يحكي سويداء القلوب إذا رمت ... فيها لواحق شادن بسهام

أعربت في وصفي له إذ قصرت ... من قبل عنه خواطر الأوهام

وانضاف محرّك إليه كأنها ... احذوه قد الصارم الصمصام

المرفع

قال بعض الكتاب: المرفع ضرب من الكبر، وفضيلة في الآلة، وترفه مفرط لا يليق بذوي التقدم في العمل، والصبر عليه، والتجرد له. وما يسرع إليه إلا كل ذي نخوة ورياسة محدثة. وهو أحسن في مجالس الحلوات منه في الجماعات. فأما مجالس الرياسة والجد في الأعمال فلا موقع له فيها. قال أحمد بن إسماعيل: قلما رأيت سيداً رئيساً يجعل بين دواته وبين الأرض مرفعاً في مجالس رياسته. وإذا عجز الكاتب عن الاستمداد من الدواة على الأرض، فيغنم رفعها إلى يده بهذه الآلة وتقريب متناولها، فهو عما سوى ذلك من تمشية الأعمال وتنفيذ الأمور أعجز. وقد هجي بعض الكتاب بذلك فقول:

إني بليت بجاهل متغافل ... متكلف في فعله متصنع

حاز الكتابة حين فضض مرفعاً ... وجرت أنامله بخط مسرع

متتايه في الحفل يبغي عزة ... فيدل في مرأى هناك ومسمع

فكلامه دون المدى متواضع ... ودواته للطرف فوق المرفع
حدثني أحمد بن محمد بن إسحاق قال: دخلت أنا وأبو علي بن المرزبان على يحيى بن مناوة الكاتب، وبين يديه
مرفع قد قارب صدره عليه دواته، فقلت لابن المرزبان: أما ترى هذا المرفع؟ فقال: هذا مرفع وصاحبه رقيق لا
رفيع.

وقيل لبعض الرؤساء - وقد جعل دواته على مرفع: ما كل الأجلاء تفعل هذا. فقال: من جلس على فرش
تعليه قليلاً بعدت عليه مسافة الاستمداد، فأما من كان على حصير أو سباط فلا عذر له فيه. وقد وصف
بعضهم مرفعاً مفضضاً واحتج له فقال:

قرب البعد مركب لدواة ... ملجم من حليه بلجام
فضة تستضيء في أنوس ... مثل ضوء الإصباح في الإصباح في الإظلام
كخوان الطعام سهل للأك ... قال: منه ما كان صعب المرام

محراك الدواة

كذا تسمية الكتاب. وللعيدان التي تحرك بها العرب الأشياء أسماء: فالعود الذي تحرك به النار مسعر ومسعار،
ومحرت ومحراث، ومنه قيل: " مسعر حرب " أي يسعرها بوقدها.
ويقال لما يجرح به الأشربة مجرح ومجرح مخاض، ويقال له أيضاً مخوض.
ويقال أيضاً للميل الذي يحرك به الجراحات محراك، ومحراف، ومسبار أي يسبر به قدر الجراحة أي تختبر به،
وربما سموا الموضع بذلك. وقد روى القطامي يصف جراحة:
إذا الطبيب بمحراكيه حولها ... زادت على النقر أو تحريكها ضحماً
ويروى بمحرافيه. وقد ذكر المحراك بعض الشعراء من الكتاب فقال:
بدر من الديوان لم يحترم ... ضيائه بالنقص أفلاكه
صير جسمي قلماً هجره ... يردي دم العشاق سفاكه
وقلب الهجر هواه كما ... يقلب الكرسف محراكه

الكتب في اللغة

قولهم: كتبت الشيء، يريدون ضمنت بعضه إلى بعض. ويقال: كتبت الشيء كتباً وكتابة. ويقال: اكتب
بغلتك أي ضم حياها بملقة حتى لا يطأها الفزاري لأن فزارة تعير بذلك. قال الفرزدق في الناقة:
لا تأمن فزارياً خلوت به ... على قلو صك وكتبها بأسيار
وقيل: المعنى قارب بين شدها حتى لا يسرقها الفزاري، وهذا أشبه، لأن الفرزدق أيضاً يهجو ابن هبيرة الفزاري
بسرقه فزارة قال يخاطب هشاماً:
أطعمت العراق ورافديه ... فزارياً أخذ يد القميص
يقول: قد رق فقطع فكمه خفيف قصير.

وقيل: كتيبة الجيش لاجتماعها، وتكتبت تجمعت. والكتب الخرز الواحدة كتبة بضم خرزة إلى خرزة، وقال ذو الرمة يصف المزادة التي يستقى فيها الماء:

وفراء غرفية أثنى خوارزها ... مشلشل ضيعته بينها الكتب

يريد أن هذه الخرز لما اتسعت ضيعت الماء، وفراء واسعة، وغرفية دبغت بالغرف وهو شجر، والخوارز نساء، وأثنى أفسد والثأى الفساد، والمشلشل الذي يتصل قطره وهو مرفوع على شيء تقدم في البيت الأول وكاتب والجمع كتاب وكتبة وكاتبون. والموضع الذي يتعلم فيه الكتاب كتاب ومكتب.

ويقال أيضاً أكتب فهو مكتب. واكتبت الرجل ما أراد أكتبه اكتاباً جمعه له وأمليته عليه. ويقال زبرت الكتاب إذا كتبه ازبره زبراً. وقال رجل من حمير: أنا أعرف بزبرتي أي كتابتي. وسميت الكتيبة لاجتماعها، وتكتب القوم تجمعوا. وقال عبيد بن الأبرص:

أنبت أن بني جذيلة أوعبوا ... سفراء من سلم لنا وتكتبوا
أي تجمعوا.

وقال التوجي: الموضع الذي يعلم فيه الكتاب مكتب ومكتب مثل مطلع ومطلع، وكاتب الرجل إذا خارته الخط مكاتبة وكتاباً مثل نادمته منادمة ونداماً. وكاتبته فكاتبته مثل غالبته فغلبته وخارته مخايرة وخياراً فخارته. وقال المازني: يقال اكتب الرجل إذا صار كاتباً حاذقاً.

قيل: أجاد إذا صار له فرس جواد. وألبن إذا صار ذا لبن. وأتيت فلاناً فأكتبته وأحسبته إذا وجدته كاتباً حاسباً. كما تقول أتيته فأجلبته أي وجدته بخيلاً. وأتيت بلد كذا فأمطرته أي وجدته مطيراً. وقال الحرمازي: سمعت أعرابياً يقول: ظلمني هؤلاء الكتب مثل صائم وصوم وقائل وقول. ومثله في المعتل غاز وغزى، قال العجاج: حتى إذا ما حان قطب الصوم

وزبرت الكتاب كتبه وزبرته قرأته. ووحيت الكتاب أحياه وحياً كتبه، وكتاب موحى ومكتوب بمعنى، فوحيت كتبت، وأوحيت أعلمت وأشرت، وقد قيل في هذا وحيث وأوحيت، فأما في الكتاب فوحيت قال الشاعر:

ما هيح الشوق من الأطلال ... أضحت فقاراً لوحي الواحي

وإذا أردت أن تكتب من هذا قلت يا وحي حه، أثبت الهاء إذ كانت العرب لا تتكلم بحرف واحد. ويا وحيان حيا ويا واحون حوا. وإذا أمرت من أوحيت قلت يا موحى ويا موحيان أو حيا ويا موحون أو حوا.

السكين

قال بعض الكتاب: السكين مسن الأقلام يسنها إذا كلت، ويلصقها إذا بت، ويطلقها إذا وقفت، ويلمها إذا تشعنت. وأحسنها ما عرض صدره، وأرهف خصره، ولم يفضل عن القبضنة نصابه. والسكين تذكر وربما توث قال أبو ذؤيب.

يرى ناصحاً فيما بدا فإذا خلا ... فذلك سكين على الخلق حاذق

أي قاطع. ومنه حذق الصبي قطع عنه التعليم. وفي تأنيثها، يقول بعض بني ثعلب:

فالخي للسنام غداة قر ... بسكين موثقة النصاب

وفيها يقول أحمد بن إسماعيل:

إني إذا ماضي البراع بلدا ... وحرار في ميدانه وعردا
لمصلح من حده ما أفسدا ... بمدية كريمة من المدى
كادت تفل الصارم المهندا ... تهدي إلى الأقالم حيناً وردى
كأنما يوقع منها بعدى ... وهي بما تفعل تولينا يدا
لأنها تقيم منها الأودا ... حين ترى الأكل منها مبردا
يفوف القرطاس تفوف الردى ... بلحمة من البيان وسدى
وقال بعض الأحداث من الكتاب:

يا منتهى الفضل حليف الندى ... وابن البهاليل الأكاريم
جد لي بسكينك ذاك الذي ... لام لام ألف قاف لام ألف ميم

قال أبو بكر: والسكين يذكر ويؤنث والغالب عليه التذكير. ونصابها أصلها ونصاب كل شيء أصله. وأنصبت
السكين جعلت له نصاباً. وأقربته جعلت له قراباً وهو الغلاف. وغلفته جعلت له غلافاً. وسكين مقرب ومقربة
لمن أنت. ومغلف لمن ذكر ومغلفة. وجمع نصاب نصب. وجمع غلاف غلف، وجمع قراب قرب. وأنشدنا أحمد
بن يحيى ثعلب لأبي محكان:

يا ربة القوم قومي غير صاغرة ... ضمي إليك ثياب القوم والقربا

قال: وإنما خص القرب وهي الغلف يريد السيوف يقول: " خذي سيوفهم، واعلمهمهم أهم في دار عز وأمان
وطمأنينة لا يخافون " ، لأن العرب إذا نزلت منزلاً لم تضع سلاحها حتى تأمن.
وأشعرت السكين جعلت لها شعيرة، وهي الحاجز بين آخر الحديدية وأول النصاب. وسيلان الحديدية مركب
فيها. واقبضت السكين جعلت له مقبضاً. وسكين مقبض. وقد حكى قربت السكين والسيوف فهو مقروب
أيضاً. وأنشدوا:

إن يسألوا الحق يعط الحق سائله ... والدرع مطوية والسيوف مقروب

ويقال هذا حد السكين وشفرته وظهرته وغراره وذبابه. فظهرته طرفه والجميع ظبات. وشفرته حده من
أوله إلى آخره. وغراره وشفرته واحد. وذباب كل شيء حده. وأكثر ما يوصف به السيوف من الحد يجوز في
السكين وأحدت السكين أحده إحداً واحداً وحد السكين نفسه صار حاداً وأحد فهو محد وإذا أمرت قلت أحد
سكينك وسكين حديد أي قاطع قال حسان:

بكل صقيل له مبيعة ... حديد الغرار حسام خدم

وكل السكين يكل كلاً وكلولاً وكلة. وكذلك البصر. وصدأ يصدأ صدأ إذا توسخ. وكذلك طبع يطبع
طبعاً.

الإنشاء

أنشأ الكاتب الكتاب ابتداء عمله على غير مثال يحتذيه قال الله تعالى: " قل يحييها الذي أنشأها أول مرة " .
وتقول العرب: أنشأ يفعل كذا، وأنشأ يقول كذا إذا ابتداء. وأنشأ الله الخلق. ينشئهم إنشاءً إذا ابتداء خلقهم.

وأنشأت أنا الشيء أنشئه إنشاء. وقال عز وجل: " وأن عليه النشأة الأخرى " . وإذا أمرت قلت: أنشيء الكتاب، بإثبات الياء في الكلام والخط لأن هذه الياء هي همزة فذهبت للأمر منها الحركة. حدثنا أحمد بن إسماعيل قال: كان بعض النساخ قد صار منشئاً لبلاغة ظهرت منه، فقال فيه المنشي الذي كان ينسخ رسائله:

أيها المنشي الذي ... كان بالأمس ناسخاً
نسخ تلك الرسائل ال ... متعبات المشائخا
ترك الناسخ الم ... ثل في العلم راسخاً
رغم أنف اصاره ... لذوي العلم شائخا

السطور

أصل السطر في اللغة الأثر المستطيل على استواء وجمعه أسطار وأسطر وسطار وسطور. وكل مقدم على استواء غير خارج شيء منه عن نظيره يمينة ويسرة فهو مسطر من سطر يسطر تسطيراً. وقال المسيب بن علس: ترى للسيوع يجيزومها ... ندوباً وللدف منها سطارا والكاتب مسطر وساطر. ويقال للذي يصلح بها الورق سطوره في دفاتره حتى لا تعوج سطوره " مسطرة " ، وقد سطر إذا كتب خاصة إذا لم يذكر شيئاً، علم أنه للكتابة لكثرة الاستعمال وقد يقال: سطر نخله إذا غرسه على استواء. قال رؤبة:

إني وآيات سطرن سطارا.

وقال الله جلّت عظمته: " والطور وكتاب مسطور " . أي مكتتب قد سطر وتقول: كل شيء عمله مسطر عندي أي مكتتب. وقال الله عز وجل: " وكل صغير وكبير مستطر " . وقالوا: أسطور وأساطير، وقالوا: سطر وسطر مثل سقف وسقف. وأنشدنا ثعلب للشماخ:

أتعرف رسماً دارساً قد تغيرا ... بذروة أقوى بعد ليلي وأقفرا
حكى خط عبرانية يمينه ... بتيماء حبر ثم عرض أسطرا
عرض أخفى سطوره كما تقول عرض بكذا إذا لم يصرح به وإن لم يكن كذا فسد معنى الشعر.

المقابلة بالكتاب ونسخه

يقال: قابلت الكتاب بالكتاب أقابله مقابلة وقبالاً، المعنى جعلت ما في واحد من الكتابين مثل " ما " في الآخر مشبهاً له من جهة ما كتب فيه، لا من كل جهة، لأن القدود تختلف وكذلك الألوان الذي يكتب فيه. وتقابل الموضوعان إذا كان أحدهما حيال الآخر وقبالتة، وكأنه في الحقيقة أقبل كل واحد منهما على صاحبه وشابهه في التقابل. وأقبلت المرهم الجرح ألصقته به قال ابن أحر: شربت الشكاعى والتددت ألدة ... وأقبلت أفواه العروق المكاويا يريد: جعلت المكاوي حيال العروق مقابلة لها ملصقة بها فقال الأعشى:

وأقبلها الشمس في دنها ... وصلى على دنها وارتسم
ويروى: وارتشم. قال الأصمعي: أصلها استقبل بها. وتقول العرب أقبل نعلك أي اجعل لها قبلاً وهو الشراك
لأنه يقابل النعل قال أبو نواس:
ما على وجه به قا ... بلني اليوم مهابه

وعارضت الكتاب بالكتاب إنما هو عرضت ذا على ذا وذا على هذا حتى استويا. وعارضت داري ببستانه
سويت بينهما في القيمة وأخذت هذا بهذا. وعارضته في قوله: أتيت بمثل ما قال. والنسخ على معنيين أحدهما أن
تنسخ الشيء لما تقدمه، فتذهب به فيحل مكانه ومنه قول الله عز وجل: " ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير
منها أو مثلها " . وفي كل الآيات خير، والمعنى نأت بخير منها لكم وأخف عليكم. ومنه قولهم: نسخت الشمس
الظل حلت مكانه. والمعنى الآخر أن ينسخ الشيء الشيء فيجيء بمثله غير مخالف له يقول: نسخت كتابك لم
أغادر منه حرفاً، وفي القرآن: " إنا نستنسخ ما كنتم تعملون " . ويروى أن أو من عمل الكتب نسخاً زياد.

الخطأ في الكتاب

تقول أخطأت في الكتاب تخطئ خطأً وخطأً وخطاءً. وقرأ أبو جعفر: " إنه كان خطأً كبيراً " ، مفتوحة الطاء
والحاء غير ممدودة. وقرأ أكثر القراء " إنه كان خطأً " ، من خطيء بخطأ خطأ، مثل أثم يَأْثُمُ أْثَمًا، وأخطأت
خطأً مفتوحة الحاء والطاء ممدودة.

والخطأ في اللغة ضد الصواب، وتقول: لا تخطئ يا هذا - إذا أمرته - بالهمز ساكنة وإنما أسقطت للجزم حركة
الهمزة كما تقول: اقرأ يا هذا. فإذا أمرت الإنسان أن يقرئ الضيف قلت له: أقر ضيفك فحذف لأنه غير
مهموز من قرأه يقرئه قرئاً يا هذا. وتقول وهمت في الكتاب أوهم وهماً إذا سهوت فيه فكتبت شيئاً مكان
شيء. وأوهمت فيه أسقطت منه شيئاً فلم تكتبه. قال أبو عبيدة يصف إنساناً بالبلادة: ما فهم ولو فهم لوهم .

المشق في الكتاب

يقال: مشق في الكتاب يمشق مشقاً، إذا أسرع الكتابة، والمشق في اللغة تأثير الشيء بسرعة قال ذو الرمة:
فكر يمشق طعناً في جواشئها ... كأنه الأجر في الإقبال يحتسب
وكثر ذلك في كلامهم حتى صار كل مستلب شيئاً قد مشقه قال الأخطل:
والخيل تمشق عنهم أسلابهم ... في كل معترك وكل مغار
وتقول: ترك ثوبه مشقاً ومزقاً إذا خرقة، وتقول: مشقت الإبل الكلاً إذا أكلت منه بسرعة.

الزلف

يقال: زلف في قرابة يزلف فيها زلفاً إذا تجاوز من شيء إلى شيء. وهو في حق اللغة القرب مما تريد كأنه يقرب
بذلك من القراع ما يريد قال العجاج:

طي الليالي زلغاً فرلفاً ... سماوة الهلال حتى احقوقفا
زلغاً فرلفاً بعد قرب، حتى عاد الهلال محقوقفا، وقال الله عز وجل: " وزلفاً من الليل " جمع زلغة، مثل غرفة
وغرف والزلغة القرية كأنه يريد وقتاً بعد وقت من الليل يقرب هذا من هذا.
وقال أبو عمرو الشيباني: المزالف ما قرب من المنازل من الأمصار مثل القادسية من الكوفة، والحديثة من البصرة
وله عندنا زلغة أي قرية قال عز وجل: " وإن له عندنا لزلفى " . قال المفسرون: قرية. وقال تعالى: " وأزلفنا ثم
الآخرين " .

فض الكتاب

يقال: فضضت الكتاب أفضه فضاً إذا نحيت عنه طينه وسحاته. وأصل الفض في اللغة التفرفة، كأنه فرق بين
الكتاب وبين طينه وسحاته.
وقال تعالى: " هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا " . قال المفسرون: كلهم حتى
تفرقوا.
وحضرتي نادرة عند ذكر " حتى ينفضوا " ليست من الكتاب، حدثني يموت حدثني يموت بن المدرع قال: كان
بالشام معلم رقيق طينه مشهور بشتم الصبيان، فقال: اقعديا حتى تسمعوا، فإن كنت معذوراً وإلا فلو مواء، قال:
فقعدينا قرأ عليه صبي منهم: هم الذين يقولون لا تنفقوا إلا من عند رسول الله. فقال: كذبت يا ماص سلحه،
أتلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة لا تجب عليه، وهو لا يملك مالاً؟ قال: فضحك. ثم قرأ آخر: عليها
ملائكة غلاظ شداد يعصون الله ما أمرهم ولا يفعلون ما يؤمرون. فقال: يا ابن الفاعلة هؤلاء أكراد شهاد زور
ليسوا ملائكة. قال: فضحك وضحكنا وقلنا ما نلومك بعد هذا. ومن الأول: لا يفضض الله فاك، أي لا يفرق
الله ثنابك وأراد بالفم الأسنان. وانفض القوم تفرقوا.
ويقال: فضضت ختام البكر افتضضتها قال الفرزدق.
فبتن بجاني مصرعات ... وبت أفض أخلاق الختام

السحاة

تقول: سحوت الكتاب اسحوه سحواً وسحيتته أسحاه سحياً. والواو أكثر، وسحيت بالتشديد اسحي تسحية
ومعنى سحيت قشرت. وسحاة القرطاس والجمع سحاء ممدود. وحكى بعض أهل اللغة أنه يقال: سحاة
وسحاية ويقال: سحوت اللحم عن العظم إذا قشرتة. وقال الأصمعي: الساحية من المطر التي تقشر وجه
الأرض.
وقال أعشى همدان:

جرت به ذيلها غراء ساحية ... في يوم نحس من الجوزاء منحرق
والمسحاة مشتقة من ذلك لأنها تسحو وجه الأرض. وإذا قال: سحيت الكتاب فإنما يريد جعلت عليه سحاة
مثل عطاء وسحاية مثل عطاية. وما أحسن سحيتك للكتاب! أي أخذك سحايتته.

وإذا أمرت من سحوت قلت: اسح يا هذا ومن سحا سح يا رجل ومن سحيت سح وكتاب مسحى ومسحو. وإذا أخلق الكتاب فصار كالسحايا قيل: قد أسحى الكتاب فهو مسح. وكذلك إذا كان أخذ السحاية منه سهلاً. وإذا وضعت السحاية على الكتاب فقد سحيته وسحوته. وخزمته خزماً وكتاب مخزوم. والسحاية من هذا خزامة وجمعها خزائم والخزم الشد في كل شيء.

تتريب الكتاب وتطيينه

يقال: تربت الكتاب تتريباً، ولا تقل: أتربت، فإذا أمرت قلت: ترب كتابك، ولا تقل أترب، اللهم إلا أن تقول: إن كتابه كثير التراب، فتقول: أترب بكتابك كما تقول: برد بطعامك، فإذا تعجبت من برده قلت: أبرد طعامك.

وقد جاء في التراب لغات قالوا: تيرب وتوراب وقال اللحياني: تورب أيضاً وتراب وترب وأتربة وتربان وتربان ويقال هذه ترباء طيبة وتربة وترب.

ويقال طينت الكتاب أطينه تطييناً، إذا جعلت عليه طين الخاتم. وتقول: طنت الكتاب أطينه طيناً، مثل زنته أزيته زيناً، ولا يقال: أطنت. فإذا أمرت قلت: طين كتابك وإن شئت قلت: طن كتابك من طنت أطين وما أحسن طينتك للكتاب! من هذا وكتاب مطين مثل قولهم: زت العجين فهو مزيت إذا ألقيت فيه زيتاً قال الشاعر:
ولم يقفلوا نحو العراق بیره ... ولا حنطة الشام المزيت خميرها

الخو في الكتاب

يقال: محوت الكتاب أمحوه محواً بالواو، فإذا أمرت من هذا قلت: أمح. وحكي محيت أمحى محياً. ومن أمثالهم " ما أنت إلا محياً وكتباً ". فإذا أمرت من هذا قلت: امح والواو أفصح وبها نزل القرآن: " يمحو الله ما يشاء ويثبت ". والخو في اللغة تعفيه الأثر حتى لا يرى.

حدثنا محمد بن الحسن البلعي، قال: حدثنا أبو حاتم قال: قيل للأصمعي: لم سمى العرب الشمال محوة؟ قال: لأنها تمحو السحاب ولا يرى شخصه. واستدعى أبو نؤاس أن يكتب المكاتب له الخو في كتابه فقال:

أكثرني الخو في الكتاب ومحي ... ه بريق اللسان لا بالبنان
وأمرني كلما مررت يسطر ... فيه محو لطعته بلساني
فأرى ذاك قبلة من بعيد ... أسعدتني وما برحت مكاني
وقال أبو نؤاس:

يا ذا الذي قبلته فمحاه ... أخشيت أن تقرأ حروف هجاه
ظني يرى التقبيل فيه مؤثراً ... فتراه منه كيف يمسخ فاه
ويظنه لكتابه في لوحه ... يبقى بقاءً دائماً فمحاه

عرض الكتاب

يقال: عرضت الكتاب أعرضه عرضاً، إذا أمرته على طرفك بعد فراغك منه، لئلا يقع خطأ، وكذلك عرضت الجند. ولا تنقل أعرضت الجند لأن الإعراض انصرافك بوجهك عن الشيء، وحقه في اللغة أنك وليته عرض وجهك قال عمرو بن كلثوم:

وأعرضت اليمامة واشمخرت ... كأسياف بأيدي مصليتنا

ويقول: صرنا إلى موضع رأينا منه عرضها أي جانبها فكأنما هي أريناه. وقد عرضت ما قلت على قلبي. وهذا خلاف العرض على العين، إنما يريد أفكرت فيما قلت. وعرض الرجل على ماله فهو عارض وعرض على فلان فهو معروض عليه.

وقال ابن الأحنف:

كأن خروجي من عندكم قدراً ... وحادثاً من حوادث الزمن

من قبل أن أعرض الفراق على ... صبري وأن أستعد للحزن

أنشد هذين البيتين محمد بن يزيد المبرد وقال: عمك إبراهيم بن العباس أحزم رأياً من خاله العباس بن الأحنف حين قال:

وناجيت نفسي بالفراق أروضها ... فقالت: رويداً لا أعزك من صبري

فقلت لها: فالين والهجر راحت ... فقالت: أمني بالفراق وبالهجر

فقلت له: إنه أخذهما أيضاً ابن الأحنف:

عرضت على قلبي السلو فقال لي: ... من الآن فتش لا أعزك من صبر

إذا صد من أهوى رجوت وصاله ... وفرفته جمر أحر من الجمر

وأما قوله عز وجل: " وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً " ، فإنه يقول عز وجل: أظهرناها لهم وأبرزناها،

هكذا قال المفسرون. وعرضت المتاع على المشتري أبرزته له. وعرضت الحوض على الناقة إذا امتحنت

عطشها. وقد قلبوا فقالوا: عرضت الناقة على الحوض كما قالوا:

كانت عقوبة ما فعلت كما ... كان الزناء عقوبة الرجم

فأما معارضة الكتاب فعرض واحد على الآخر حتى يستويا.

اللحن في الكتاب

قال: حدثنا أبو بكر قال: حدثنا المغيرة بن محمد المهلب قال: حدثنا محمد بن عباد عن أبيه، قال: لحن أيوب في حرف فقال أستغفر الله.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري وقد قرأ في كتابه لحناً: قنع كاتبك سوطاً.

حدثنا أحمد بن يحيى ثعلب، قال: كان ابن قادم مع إسحاق بن إبراهيم المصعبي فكتب كاتبه ميمون بن إبراهيم

إلى المأمون كتاباً فيه: " وهذا المال مالاً يجب على فلان " ، فخط المأمون على " مالاً " ووقع بخطه في حاشية

الكتاب: أتكاتني بلحن يا إسحاق؟! فاشتد ذلك عليه .

قال: فحدثني ابن قادم، قال: أتاني ميمون فقال: الله الله في احتل لي. فحضرت فسألني إسحاق عن الحرف

فقلت: الوجه وهذا المال مال، ومالاً يجوز على تأول، لأخلص الكاتب. فقال إسحاق لكاتبه: قد عفوت عنك فدعني من يجوز والزم صحيح الإعراب. قال: ثم أكب ميمون علي يقرأ النحو حتى فهم منه شيئاً كثيراً. حدثني أبو عبد الرحمن الألويسي العباس بن عبد الرحيم قال: سمعت عبد الله بن قتيبة يقول كتب إلي رجل من سر من رأى: قد قرأت كتابك المترجم بكتاب الكتاب وقد أعبت عليك فيه حرفاً. فكتبت إليه: وصل كتابك وفهمته وقد عبت عليك قولك وأعبت عليك والسلام.

قال أبو بكر: هذا شيء يتسع فيكثر فجننت منه بطرف لأنه وحده يكون كتاباً كبيراً لو ذكرته. وقالوا: " اللحن في الكتاب، أقبح منه في الخطاب " .

وأكثر العلماء يلحن في كلامه لئلا ينسب إلى الثقل والبغض، فأما في الكتاب وإنشاد الشعر فإن ذلك قبيح غير جائز.

يقال: لحن يلحن لحناً فهو لاحن إذا أمال الصواب عن جهة إلى جهة أخرى. وأما قوله عز وجل: " ولتعرفنهم في لحن القول " ، فإن الكلبي يقول في لحنه في مداره. قال: وحقيقته في اللغة إمالة الشيء من جهته، إما خطأ أو عمد، ليؤري عن إرادته. قال القتال الكلابي:

ولقد لحت لكم لكيما تفهموا ... ووحيت وحياً ليس بالمرتاب

وحكى الجاحظ في كتاب البيان والتبيين أنه يستحسن من الجارية اللحن وتكره الفصاحة. قال ولذلك قال مالك بن أسماء الفزاري:

منطق رائع وتلحن أحيا ... نأ وأحلى الحديث ما كان لحنا

فذهب بهذا إلى لحن الخطأ، وهو قبيح من مثله وخطأ فاحش عليه أن يتأول هذا، ثم لم يرض حتى احتج له. والذي أراد مالك أنها فطنة تأتي بالشيء تريد غيره وتميل ظاهره عن باطنه. وقد قيل للجاحظ: غير هذا في كتابك فإنه قبيح، فقال: افعل، ولكن كيف لي بما سارت به الركبان.

ويقال من هذا: فلان لحن بحجته من فلان، أبي لحن يامالة الباطل إلى الحق بفصاحته وعلمه. ويصدق ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لعل أحدكم أن يكون لحن بحجته من صاحبه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار " .

قال أبو بكر: حدثنا محمد بن يزيد قال: حدثني الجاحظ عن أبي عبيدة قال: رأني أبي وأنا أكتب كتاباً فقال: " يا بني اجعل فيه لحناً ليزول عنه حرفة الصواب " .

يقال: لحن الرجل يلحن لحناً إذا أخطأ بتسكين الحاء ولحن يلحن لحناً إذا أمال الشيء إلى الجهة التي يريد بها. ويجعلون هذا مكان هذا، إلا أن الاختيار في الثاني فتح الحاء. قال ابن أم صاحب فحرك الحاء:

غمست عنهم وما ظني مخافتهم ... وسوف يعرفهم ذو اللب واللحن

غمست عميت. حدثنا أبو العيلاء قال: قدم أبو علاء المنقري. من الأهواز فقال لي: يا أبا عبد الله ما أكبر دباها وما أبخل أهلها! قلت: وما أكثر اللحن فيها! قال: كثير جداً. وكان فصيحاً على لحنه.

حدثنا جبلة بن محمد الكوفي، قال: حدثني أبي قال: عاد بن أبي ليلى بعض أشرف الكوفة، وكان له أخ لحن، فجعل يقول: " يا أخي افتح عينك حرك شفتناك كلم أبي عيسى " . فقال له ابن أبي الحبي: " أظن علة أخيك استماع لحنك " .

قال الصولي: وحدثنا أبو العيناء قال: قال رجل لأبي شيببة القاضي: علي كفارة يمين فبأي شيء أكفر. بدقيقاً بسويقاً. فقال الرجل: ما لحت أطيب من لحنك. وقال له بن مصقلة: لو كان لحنك من الذنوب لكان من الكبائر.

وقال أبو بكر وأنشدني عون بن محمد:

لقد كان في عينك يا حفص شاغل ... وأنف كمثل العود عما تتبع
تتبع لحناً من كلام مرقش ... وأنفك كمثل إبطاء وأنت المرقع
حدثنا الباجي قال: كتب ابن الرومي كتاباً بخطه فلحن فيه إلى أبي الحسن محمد بن أبي سلاله وقد كان احتبس
عن ابن الرومي فكتب إليه ابن الرومي وقد علم بذلك:
ألا أيها الموسوم باسم وكنية ... وجدناهما اشتقا من الحمد والحسن

أنبخل بالقرطاس والخط عن أخ ... وكفك أندی بالعطاء من المزن
أغلق عني علمه بكتابه ... أخ لي وقلبي عنده علق الرهن
عطفناك فاعطف إن كل ابن حرة ... أخو مكسر صلب وذو معطف لين
وإن سقطاتي في كتابي تتابعت ... فلا تلحني فيما جنيت على ذهني
حدثنا محمد بن القاسم بن خلاد قال: حدثني الأصمعي قال: دخلت على مالك بن أنس بالمدينة، فما هبت عالماً
قط هيبتي له، فتكلم فلحن فقال: مطرنا البارحة مطراً وأي مطراً، فخف في عيني فقلت له: يا أبا عبد الله قد
بلغت من العلم هذا المبلغ فلو أصلحت من لسانك! فقال لي: فكيف لو رأيت ربيعة بن عبد الرحمن؟! قلنا له:
كيف أصبحت؟ فقال: بخيراً بخيراً.
وما أحسن ما قال بعض الزهاد: " أعربنا في كلامنا فما لحن، ولحنا في كلامنا فما أعرب " .

التوقيع والإيجاز

يقال: وقعت في الشيء أوقع توقيعاً وكتاب موقع فيه ورجل موقع فإذا أمرت قلت: وقع فيه. وحقه في اللغة
التأثير القليل الخفيف، يقال: دف هذه الناقة موقع إذا أثرت فيه حبال الأحمال - والدف الجنب - تأثيراً خفيفاً.
وحكى العتيبي أن أعرابية قالت لخل لها: حديثك ترويع وزيارتك توقيع.
وقال جعفر بن يحيى لكتابه " إن استطعتم أن تكون كتبكم كالتوقيعات فافعلوا " . يريد بذلك حضهم على
الإيجاز والاختصار.

وحدثني أحمد بن إسماعيل قال: حدثني أحمد بن محمد بن إسماعيل بن صبيح قال: كان أبو سلمة يوقع في الكتب:
" آمنت بالله وحده " . فخرجت لأبي اللفائف الكوفي صلة بكتاب من السفاح فجاء يناشد أبا سلمة وقد تأخر
تعليمه فيه:

قل للوزير: أراه الإله في الحق رشده

البازل النصح طوعاً ... لآل أحمد جهده

أطلت حبس كتابي ... وحمله ثم رده

يا واحد الناس وقع ... آمنت بالله وحده
يقال أوجز في كلامه وكتابه وفعاله يوجز إيجازاً إذا أسرع وخفف. وموت وجيز وحي سريع. ورجل موجز إذا
كان يفعل ذلك. ووجز الكلام بنفسه يجز وجزاً. قال رؤبة:
ها وجز معروفك بالرماق

التعليم في الكتاب

يقال: علمت في الكتاب أعلم تعليماً إذا وقعت فيه خطأ تعرفه به ويعرفه غيرك. ولا تقل أعلمت فيه. ولا
أعلمت عليه. ولا تعلمت فيه. ومن العرب من يقول: أعلم كذا وتعلم كذا بمعنى. وقال:
تعلم أن سر الناس حي ... تنادي في شعارهم يسار
فتعلم بمعنى أعلم.

الإملاء

يقال: أمليت الكتاب وأمللت. وقد نزل القرآن باللغتين جميعاً قال الله عز وجل: " وقالوا أساطير الأولين
اكتتبها فهي تملئ عليه ". وقال جل وعلا: " فليملل وليه بالعدل ". وقال الهذلي:
وإني كما قال: تملئ الكنا ... ب في الرق أو خطه الكاتب
وأصله في اللغة من الإطالة. ومنه الملوان الليل والنهار. ومنه: " إنما تملئ لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ".
وإنما أخرجهم الله ليتوبوا فلما كان تأخيرهم سبب إثمهم وآلته آل أمرهم بسبب التأخير والإملاء إلى الإثم. وكما
قال عز وجل: " فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ". وهم لم يلتقطوه لذلك ولكن لما آل أمره إلى أن
كان لهم عدواً نسب الالتقاط إلى المال.
وأنشد التنوخي:
وكان لنا قيذان قد أمليا لنا ... وفي الدهر والأيام للمرء زاجر

طي الكتاب ودرجه

يقال طوى الكتاب يطويه طياً وطية واحدة وطواه طية فقال ذو الرمة:
من دمنة نسفت الصبا كدرا ... كما تنشر بعد الطية الكتب
ومضى لطيته إذا سافر. وقالوا: الطية البعد، وهو عند بعضهم من طي المنازل.
وقد قيل: إن طياً سمي بطيه للمنازل، وهذا خطأ عند أكثرهم، يقولون: فمن أين جاءت هذه الهمزة؟ وأصله من
الطي. والحققون في اللغة يقولون: كان كثير القرى وطي المنزل فسمي بهذا.
فعلى هذا طي الكتاب سرعة إدراجه. وكذلك أدرج الكتاب معناه أسرع طيه فدرجه إدراجاً. وقال أبو عبيدة:
مدرجة الطريق التي يسرع الناس فيها. وناقاة دروج سريعة. ورجع فلان على أدراجه إذا رجع في الطريق الذي

جاء فيه. وسالت أبا تذكون عن هذه اللفظة فقال: حقيقتها أن الكتاب إذا أدرج فهو على مطاوع، فإذا نشر رجعت تلك المطاوي إلى ما كانت عليه. وقال ابن حذاق في أدرج:

وغسلوني وما غسلت من تفل ... وأدرجوني كأني طي مخراق
والمشق في اللغة تأثير الشيء بسرعة. قال ذو الرمة:
فكر يمشق طعناً في جواشئها ... كأنه الأجر في الإقبال يحتسب
وكثر ذلك في كلامهم حتى صار كل مستلب شيئاً قد مشقه. قال الأخطل:
والخيل تمشق عنهم أسلابهم ... في كل معترك وكل مغار
وقالوا: درج يدرج درجاً بمعنى أدرج وليست بالجيدة وكله من الإسراع، ومنه درج الرجل إذا مات ولا نسل له.

يقال: طمست الكتاب أطمسه طمساً إذا عميت خطه حتى لا يقرأ. وقيل: طمس وطمس بمعنى واحد، كما قيل جذب وجذب. وطمس الله بصره إذا أذهب نوره وأخفاه. قال القطامي:
وليلة قد بت ما أناملها ... في بلدة طامسة أعلامها
وقوله عز وجل: " من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها ". قال المفسرون: نجعلها كأقفانها منبتاً للشعر مثل وجوه القردة، وقد نجعل وجوههم إلى ظهورهم مكان القفا. وطمست الأثر محوته، عن أبي زيد والأصمعي. وطمس الكتاب وطمسه أيضاً محاه. والطمسة السواد. وبعض أهل اللغة يقولون: هو لون يقارب السواد. وأكثر ما يوصف بالطمسة الذئب، يقولون: ذئب أطمس. والرياح الطوامس التي تذهب بمعالم المنازل تطمسها. ويقال: درس ما في الكتاب يدرس، إذا خفي شيء بعد شيء، حتى يذهب أثره، ومنه درس البعير إذا جرب كأنه يلي بعض جربه بعضاً. وثوب درس أي مخلق لأنه يخلق حالاً بعد حال وشيء في أثر شيء. واختاروا في تعفي الأثر وفي الجرب درس دروساً وفي الثلاثة درس درساً.

درس الكتاب وسرده

درس الكتاب والقرآن يدرسه درساً إذا قرأه قراءة متصلة بعضها ببعض أو في أثر بعض. وقرأ ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو عمرو وأهل المدينة: " وليقولوا درست "، قال المفسرون: يقولوا تعلمت ذلك من اليهود ودرسته معهم. وقرئ درست، يريد دارستهم ذلك. وقرأ الحسن درست أي أخلقت، يقولون: هذا الذي تأتي به قد جاء غيرك بمثله وهذا من الدروس لا من الدرس. وقال التوجي: درس الشيء إذا أكثر قراءته وتردد فيه ومنه طريق مدروس تدرسه الناس كثيراً.
وكذلك سرد الكتاب يسرده سرداً شبيه بقوله درسه درساً، ودرع مسرودة بعضها يتلو بعضاً حتى تتم. قال أبو ذؤيب الهذلي:

وعليهما مسرودتان قضاهما ... داود أو صنع السوايح تبع
يعني درعين منسوجتين وقضاهما عملهما. وقال المفسرون في قوله عز وجل: " وقدر في السرد " أي في نسج الحلق ونظمه. وقال مسرودة مسمورة بالحلق.

الخاتم وسببه وما قيل فيه

حدثنا إبراهيم بن عبد الله اللجي قال: حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد عن المغيرة بن زياد عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتماً من ذهب فلبسه ثلاثة أيام ففشت خواتيم الذهب في أصحابه، فرمى به واتخذ خاتماً من ورق نقش عليه: " محمد رسول الله " فكان في يده صلى الله عليه وسلم حتى مات. وفي يد أبي بكر حتى مات وفي يد عمر حتى مات، وفي يد عثمان ست سنين، فلما كثرت عليه الكتب دفعه إلى رجل من الأنصار ليختم به فأتى قليلاً لعثمان رحمه الله فسقط الخاتم في القليب فالتمسوه فلم يجدوه، فاتخذ خاتماً من ورق ونقش عليه " محمد رسول الله " .

ولم يتخذ صلى الله عليه وسلم الخاتم حتى احتاج إلى مكاتبة الملوك، منصرفه من الحديدية سنة ست فقبل له: إن الملوك لا تقبل الكتاب إلا أن يكون محتوماً، فاتخذ خاتماً من فضة ونقش عليه: " محمد رسول الله " محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر.

وحدثنا محمد بن أبي قريش، قال: حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري قال: حدثنا حميد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى ملك الروم " فكتب ملك الروم " لا نقبل كتاباً إلا محتوماً فاتخذ خاتماً ونقش عليه محمد رسول الله محمد سطر وسول سطر والله سطر.

ويقال: ختمت الكتاب بغير ألف، ولا يقال: اختمت، فإذا أمرت قلت اختم كتابك وهو الخاتم والخاتم والخاتام والخيتام وجمعه خياتيم. وختم فهو خاتم مثل ضرب فهو ضارب. ويجمع خاتم خواتم وخواتيم. وختمت الكتاب ختماً وختاماً ويجمعونه ختم.

وختمت الكتاب وطبعته بمعنى قطعه بآخر العمل فيه. ومنه " الأعمال بخواتيمها " أي بأواخرها التي ينقطع العمل بها. وفلان خاتم القوم وخاتمهم أي آخرهم.

وقيل: الختم الحظر وقد حكى عن أعرابي أنه قال: ختمت على العيون أن تراها، يريد امرأة، المعنى حظرت. " وختامه مسك " قال المفسرون: مقطعه يوجد معه رائحة المسك. واختم أمرك بكذا أي أقطعه به. ويروى عن ابن عباس أنه قال: كل كتاب غير محتوم فهو ألقف.

وقال عمر بن الخطاب رحمه الله يوصي بالختم: " طينه خير من طنه " . وفسروا قول الله عز وجل: " إني ألقى إلي كتاب كريم " ، أي محتوم.

والذي عليه الكتاب الخذاق أن الرئيس والنظير يختم رقاعه وتوقيعاته إن شاء وأن من دونهم لا يختم، وإن ختم وهو دون الرئيس والنظير، لزمه إثبات اسمه على جانب كتابه الأيسر تضاهلاً وتواضعاً. وكتب بعض الكتاب إلى رئيس له: أنت - أيدك الله - تختم رقاعك لأنهما مطايا بر، ولا أختم رقاعي فما حوامل شكر.

وأحسن ما ختم به الرؤساء كتبهم ما عليه اسم الرئيس واسم أبيه.

وقال بعض الكتاب: الوزارة الختم والخاتم، لأن سائر الأعمال يباشرها بعض الكفاة إلا الختم فإنه لا بد أن ينتهي الكتب إلى الوزير وتعرض عليه فيختمها بخاتم الملك.

وقال إبراهيم بن العباس الصولي: الكتب موات ما لم يوقع فيها توقيع الختم وتختم، فإذا فعل ذلك بما عاشت.

وقال عمر بن مسعدة: الخط صور الكتب ترد إليها أرواحها.

وكان محمد بن عبد الملك الزيات، إذا أراد أن يختم الكتب دعا بدرج فيه الخاتم، فإذا جيء به وهو خاتم الملك، قام قائماً فأخذه إجلالاً له ثم جلس فأخرجه وختم به ورده إلى الدرج وختم عليه .

وكانت بعض الكتاب في أن الختم والتوقيع إلى الرؤساء:
حاتم لا أنفك حارس سلبه ... أدعى فأسمع مدعناً وأطيع
يتداول الناس الرياسة بينهم ... وأروم حظهم فلا أستطيع
وأكلف العبد الثقيل وإنما ... يبلى به الأتباع لا المتبوع
وعليهم الأثقال يمتلونها ... وعلى الرئيس الختم والتوقيع
فقال آخر:

يا أيها الملك المنفذ أمره شرقاً وغرباً
امنن بختم صحيفتي ... ما دام هذا الطين رطباً
واعلم بأن جفافه ... مما يعيد السهل صعباً
وقال آخر:

قل للخليفة إن الله سربله ... سربال ملك به تمضي الخواتيم
وقال آخر في الخواتم:

أناس أبو العاصي أبوهم توارثوا ... خلافة مهدي وخير الخواتم
وقال آخر في الخاتام:

لو كان عندي مائتا درهم ... لجاز في أرضهم خاتامي
وقال أعرابي:

يا مي ذات المعجر المنشق ... أخذت خاتامي بغير حق

وحدثني عمرو بن تركي القاضي قال: حدثنا القحلمي قال: كان علي خاتم البريد للأسرة صورة ذباب، يريدون بذلك أن لا يحجب كما أن الذباب لا يمكن أحداً أن يحجبه.

قال: وكانت الخواتم في خزائن الملوك لا تدفعها إلى الوزراء، فأطرد الأمر على ذلك حتى ملك بنو أمية، وأفرد معاوية ديوان الخاتم، وولاه عبيد بن أوس الغساني وسلم الخاتم إليه، وكان على فسه " لكل عمل ثواب " .
وكان سبب ذلك أنه كتب لعمرو بن الزبير إلى بعض عماله بمائة ألف درهم ففرق عمرو الهاء وجعلها ياء وأخذ مائتي ألف درهم، فلما مرت بمعاوية ذكر أنه لم يصله إلا بمائة الف درهم، فأحضر العامل الكتاب فوقف معاوية على الأمر فاتخذ ديوان الخاتم.

العنوان

يقال عنوان الكتاب وعنوانته وهي اللغة الفصيحة. وبعضهم يقول: علونت فيقلب النون لأمراً لقرب مخرجهما من الفم، لأنهما يخرجان من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا. وقد قيل: العلوان فعوال من العلانية لأنك أعلنت به أمر الكتاب وممن هو وإلى من هو. وسمعت أحمد بن يحيى يقول: أعلن أمرنا علوناً وعلناً.
والعنوان العلامة كأنك علمته حتى عرف بذكر من كتبه ومن كتب إليه. قال حسان بن ثابت يرثي عثمان بن

عفان رضي الله عنه:

ضحوا بأشمط عنوان السجود به ... يقطع الليل تسيحاً وقرآنا
وقال المأمون لرجل رآه في موكبه فلم يعرفه، وكان جسيماً: ما هذه الجسامة؟ قال: " عنوان نعمة الله ونعمتك
يا أمير المؤمنين " .

ويروى أن معاوية قال لبعض العرب مثل ذلك، فأجيب بهذا الجواب.

وأول من كتب " من عبد الله فلان أمير المؤمنين " . كان يقال لأبي بكر رضي الله عنه وهو أول من سمي " أمير
المؤمنين " . كان يقال لأبي بكر رضي الله عنه " خليفة رسول الله " ، ثم قيل لعمر: " خليفة رسول الله " ،
فدخل المغيرة بن شعبة على عمر فقال: " السلام عليك يا أمير المؤمنين " ، قال عمر: وما هذه؟ قال: ألسنا
المؤمنين وأنت أميرنا؟ فكان أخف من الأول فجزوا عليه .

وكانوا يكتبون في العنوان " بسم الله الرحمن الرحيم " مثل ذكر من كاتب ثم ترك.

قالوا: والأحسن في عنوان الكتاب إلي الرئيس، أن يعظم الخط ويفخمه، إذا ذكرت كنيته أو نسبته إلى شيء،
وأن تلتف الخط في اسمك واسم أبيك وتجمعه. وقال المحققون من الكتابة: إن في ذلك إخلالاً للمكتوب له وفي
مخالفته غص منه وتناول عليه. وإن كانت آخر الكلمة ياء مثلاً، كأبي علي وأبي عيسى وأبي يحيى وأبي يعلى،
غرقت الياء إلى قدام، ولم تردها إلى خلف، فقد حكي في ذلك شيء مليح .

حدثني أبو المرزبان قال: قال لي محمد بن يزيد الأموي الشاعر: استحسنت من عيسى بن فرخان شاه شيئاً، رأى
كاتباً له قد كتب اسمه عيسى، فرد الياء إلى خلف عيسى، فقال: قولوا لهذا الكاتب لا تعد لمثل هذا، فإن أيسر
ما فيه أن الياء إذا كانت إلى قدام كان ذلك فألاً للإقبال، وفي ردها فآل للإدبار، وقالوا: مع هذا فهو أهمل
للخط وأفسح للشكل.

ويعنون إلى الأمير بالإسم والتأشير، بغير دعاء ولا كنية اكتفاء بجلالة التأشير، والإسم مع التأشير أجل من الكنية
لأنه أشبه بمكاتبة الخلفاء لأنهم يقولون في التصدير للإمام " لعبد الله فلان الإمام أمير المؤمنين " ، ولا يأتون بكنية
فكذلك شبهوا هذا به، فكان الإسم مع التأشير أجل من الكنية. ثم يكتبون في التصدير للإمام " لعبد الله فلان
الإمام أمير المؤمنين " . ولولي العهد للأمير أبي فلان فلان بن فلان، كناه الإمام أو لم يكنه فرقواً بينه وبين الإمام .
وقد يذكر الإمام في سكة الضرب باسمه، ويذكرون ولي العهد بكنيته كما ذكرت لك. وقولهم لأبي فلان
حقيقتها إلى أبي فلان، والأصل من فلان إلى فلان، فلما قدم ذكر المكتوب إليه أقاموا اللام مقام إلى بن وقد قال
الله عز وجل: " بأن ربك أوحى لها " أي أوحى إليها. وحروف الخفض ينقل بعضها من بعض قال الله عز وجل:
" ولأصلبكم في جذوع النخل " أي على جذوع النخل.

وقال الشاعر:

إذا رضيت علي بنو قشير ... لعمر الله أعجبتني رضاها

وهذا كثير جداً. وقال بعض الكتاب: اللام لمخاطبة الجليل، وإلى لمخاطبة الأدنى فالأجل يكتب من فلان بن
فلان إلى فلان بن فلان، والنظراء ومن دون يكتبون لأبي فلان من فلان .

وقد عنون أحمد بن يوسف كتابه بشعر، فكتب إلى طاهر بن الحسين:

للأمير المهذب ... المكشي بطيب

ذي اليمينين طاهر بن الحسين بن مصعب

وكتب عقال بن شيبية إلى المسيب بن زهير الصبي:

للأمير المسيب بن زهير ... من عقال بن شيبية بن عقال

وكتب آخر إلى نصر بن حمزة الخزاعي:

لأبي القاسم بن حمزة نصر ... من فتى قائم بمحمد وشكر

وكتب إليه ابن الحباب:

لأبي الفضل شيبية الغسان ... المرجى لدفع ريب الزمان

من أخ لم يزل يجد له الوص ... ل على حين جفوة الإخوان

وعنون أبو نواس كتاباً له:

هذا كتاب بدمع عيني ... أملاه قلبي على لساني

إلى حبيب كنيته عنه ... أجل ذكر اسمه لساني

حدثنا اليزيدي قال: كتب أحمد بن إسماعيل إلى عرام، وهو بالكوفة مع مولاه كتاباً عنوانه:

دموع العين مذروفه ... ونفس الصب مشغوفه

من المشوق إلى البدر ال ... ذي يطلع بالكوفه

وحدثني أحمد بن محمد الأسدي، قال: كتب رجل إلى المهدي كتاباً عنوانه " عبده فلان " ، فقال: لا أعلمن

أحداً نسب نفسه إلى عبودة في كتاب أو عنوان، فإنه ملق كاذب وليس يقبله إلا غبي أو متكبر.

وحدثني عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، قال: رأى طاهر بن الحسين رقعة، كتبها ابنه عبد الله بن طاهر إلى

المأمون، عليها " عبده " فقال: يا بني سميتك عبد الله وكذلك أنت، فلا تشركن في الملك أحداً، فإنه جعلك

بانعامه حراً لا مولى لك سواه.

وقال إبراهيم بن الحسن بن سهل يرثي أخاه:

قد كنت عنوان كرام مضوا ... فمت فاختلت أصول الكرام

وحدثنا أبو ذكوان عن التنوخي، قال: يقال: عنوان الكتاب وعينانه وعلوانه. والعنوان الأثر الذي يعرف به

الشيء. وتقول العرب: ما عنوان بعيرك؟ أي ما أثره الذي يعرف به. وتقول علونت الكتاب أعلنونه علونة

وعلواناً، فإذا أمرت قلت: علون يا معلون، وعنونته عنونة وعنواناً، فإذا أمرت قلت: عنون يا وعنون. ومن

قال: عنيت الكتاب قال: عنن. ومن قال: عنيت الكتاب أبدل مكان إحدى النونان ياء، فقال: عنّ يا معني مثل

غنّ يا مغني.

قال أبو بكر: حدثنا أحمد حدثنا أحمد بن يحيى قال: كتب رجل إلى الزبير بن بكار يستجفيه فكتب إليه الزبير:

ما غير الدهر وداً كنت تعرفه ... ولا تبدلت بعد الذكر نسيانا

ولا حمدت وفاء من أخي ثقة ... إلا جعلتك فوق الحمد عنوانا

المقادير التي يكتب فيها من القراطيس

قال أبو بكر: سمعت أحمد بن إسماعيل بن الحبيب الكاتب يقول: الأئمة يوقعون في السجلات، ويكتب الإمام في الثلثين من الطومار إلى ملوك الملك وإلى عماله، ويكتب عماله إليه في مثل ذلك، ويكتبه وزيره في النصف في أمور العامة الديوانية.

فأما الخاص الذي يكتبه بخطه، أو يكتب بين يديه بإملائه، ففي خمسين، ويكتبونه في مثل ذلك في الخاص والعام، إلا من كان منهم في أدنى الطبقات، فإنه لا يكتب إلا في النصف في الحالتين جميعاً. وتتكاثر الأكتاف في الأتلات والأرباع وتحمل المودة بينهم كل شيء حملته من التسمح في ذلك، والأسداس للتوقيعات.

وقال بعض الكتاب:

أنت لما ابتدأت تكتب في الآن ... صاف خفنا من قلة الإنصاف

وعلمنا بأن مثلك لا يج ... مع بين الإنصاف والأنصاف

وقال آخر وكتب إليه في سدس:

تكاتبني بالسدس جهلاً بقدره ... لئن كان في التعريف يكتب بالأمس

إذا ما التعاويذي فارق رسمه ... فليس بمأمون التغير والنكس

ولولا حين هاجه مثل سائق ... إلى الخط في التعويد لم يعن بالسدس

إذا صح حس المرء صح قياسه ... وليس يصح العقل من فاسد الحس

واحتج آخر في أن كتب في ظهر فقال:

كتبت إليك في ظهر لعلمي ... ومعرفتي بحبك للظهور

فقلبه ابن الرومي فقال:

عشقتك الغلمان ما أم ... ككك النسوان أفن

إنما يكتب في الظه ... ر إذا أعوز بطن

وقد كره الناس الظهور، وأمر بترك استعمالها في النسخ وإنشائها، فكيف في المكاتبة. وقيل هي تفسد النيات، وتذيع الأسرار بما في باطنها، وتشعث الخطوط، وتغض من سمو الدولة، وتحقر من قدر المعنى أكثر مما يقدر منها من الارتفاق والقيمة بينها وبين النقي. وأكثر ما يكون إنصاف كتب مقطوعة، وإذا كانت كذلك كانت جنونا، ولهذا قال أبو تمام:

عذل شبيهه بالجنون كأنما ... قرأت به الورهاء سطر كتاب

واعتذر آخر من كتابته في الظهر فقال:

إن كتابي لك في الظهر ... يجبر أني ظاهر الفقر

فاعذر بنفسي أنت من سيد ... فالعذر أولى بالفتى الحر

واعلم وإن كنت الذي علمه ... يفوق علم البدو والحضر

إن الغنى يصلح دين الفتى ... والفقر سواق إلى الكفر

الدعاء في المكاتبة وترتيبه والزيادة والنقص فيه

قال أبو بكر: اختار مشائخ الكتاب، أن تكون كتب الوزراء النافذة عن الخلفاء بغير تاء المخاطب، ولا نون الجمع، فيقول عنه: " فعلت كذا أو فعلنا كذا " بل يقول في كتبه عنه وتوقيعاته " فعل أمير المؤمنين كذا فامتثل ما أمر به أمير المؤمنين " وقد ذكرنا في التكتاب ما يغني عن إعادته.

ويكتب الوزير الناس على مقاديرهم ورتبهم في السيف والقلم ومنزلهم، فدعاؤه لأمرء الأقاليم الكثيرة، المجموع لهم حربها وخراجها وسائر أعمالها كدعاء النظير إذا نقص قليلاً في صدور كتبه ويختتمها بمثل ذلك ولا بأس عندهم إن ذكر فيها تفدية. فأما دعاؤه له فاخترأوا أن يكون بغير التصدير وبالوزارة على حسب قوة أمرهم وتعززهم ومواقعهم من حسن رأي إمامهم. ومنهم من يدعو بالتوزير راجباً وراهباً.

وكان عبيد الله بن سليمان نقص حمارويه بن طولون في دعائه، فرد عليه مثله. فأجابه عبيد الله بتمام الدعاء وأحال بالذنب على كاتبه.

وكان القاسم بن عبيد الله - لما استوزر مكان أبيه - يكتب الأمير بعد بالتأمر والدعاء التام، فيكاتبه بعد بالتوزير ويتمم الدعاء له.

ومن الوزراء من يدعو لبعض هؤلاء: " أطال الله بقاءك " ، أو " أدام عزك " ، ومنهم: " أدام الله عزك وأطال بقاءك " . فأما من دون هؤلاء فيكاتبهم: " أعزك الله وأمد في عمرك " . وإلى من دون هؤلاء: " مد الله في عمرك وأكرمك وأبقاك " وإلى من دون هؤلاء: " وأبقاك الله وحفظك " . قال: وأول من كتب: " عافانا الله وإياك من سوء " معاوية.

وكتب عبد الحميد إلى صديق له: " جعلت فداك من سوء كله " .

وحدثني أبو القاسم إسماعيل الخاملي قال: حدثنا أبو العيلاء قال: كتبت إلى صديق لي: " جعلت فداك من سوء كله " ، فلقيني بعد ذلك فقال لي: أنا أستفيد منك أبداً لا عدمت ذلك، وقد كتبت إلي: " جعلت فداك من سوء كله " . فلقيني بعد ذلك فقال لي: أنا أستفيد منك أبداً لا عدمت ذلك، وقد كتبت إلي: " جعلت فداك من سوء كله " ، أعزك الله ما سوء كله؟ قال: فعجبت وضحكت وقلت: نلتقي بعد هذا وتقع الفوائد. ولا يتسمى الوزير ولا يتكنى على عنوان كتابه إلى أمثال هؤلاء، ولكن يجعل العلوان: " لأبي فلان " في أحد سطريه، وفي السطر الآخر: " فلان بن فلان " .

وقال طاهر بن الحسين - وهو يجارب الأمين، وكان أبو عيسى بن الرشيد معه - لكتابه: اكتبوا إلى أبي عيسى كتاباً تتقربون به إليه وتتباعدون، ولا تطعموه ولا تؤيسوه. فقلوا: إن رأى الأمير أن يعلمنا كيف ذلك ويحد لنا. فقال اكتبوه: بسم الله الرحمن الرحيم.

حفظك الله وأبقاك وأمتع بك، وعزيز علي أن أكتب إلى صغير منكم أو كبير بغير التأمر، وقد بلغني عنك ممالأة للمخلوع! فإن كان ذلك منك ميلاً على أمير المؤمنين فقليل ما أكتبك به كثيراً، وإن كنت كما قال الله: " إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان " فالسلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته.

وقال بعض الكتاب: ما أدري ما معنى المصارفة في تقديم إطالة البقاء في " أطال الله بقاءك وأعزك " ، وتأخيرها في " أعزك الله وأطال بقاءك " الأفضل التقديم والتأخير في أنفسهم، وإلا فالعطف بالواو، وهي تحيء للاشتراك فيدخل الثاني من الدعاء في معنى الأول، وقد قدم الله عز وجل، لما كان العطف بالواو مؤخرًا على مقدم، فقال:

" واسجدي واركعي مع الراكعين " ، وقال: " يا معشر الجن والإنس: .. وعلى أن المؤخر قد قدم، وآخر المقدم بغير الواو من حروف العطف، قال الله عز وجل: " اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون " ، قالوا: وإذا تولى لم يعرف شيئاً والمعنى مقدم ومؤخر كأنه فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم. وقال عز وجل: " من بعد وصية يوصى بها أو دين " والدين قبل الوصية، وهذا كثير في الشعر واللغة، قال: فلم تستن الكتاب بذلك، وصارت التقديمة لحرف على حرف نزول، إذ قدم الثاني من اللفظ على الأول .

وقال بعضهم: لا أعرف الصرف بين " أطال الله بقاءك " وبين " مد الله في عمرك " إلا ما رتبوه واستعملوه ورسومه. ومن يصارف في القليل من هذا ويشح عليه أكثر. وكان أحمد بن ثوبة أشد الناس في هذا، كتب إليه ابن أبي خالد رقعة يؤانسه فيها ذكر أولادهما فقال: " ولو كانوا بني وبنيك " . فقال: يقدم ذكر بنيه على بني لا كاتبته أبداً. واجتنبوا أن يقولوا للوزير في الدعاء " جعلني الله فداك " من أجل أن الشيء إنما يفدى بمثله أو بأجل منه، وليسوا كذلك. وفي هذا الذي ذهبوا إليه خبر مليح اعترضني حدثنا به أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب قال: حدثني عبد الله بن شبيب قال: كتب إلي بعض إخواني من البصرة وقد تأخير عنه كتاباً أوجز فيه وملح: أطال اله بقاءك كما أطال جفاك، وجعلني فداك إن كان في فداؤك، وقال: كتبت ولو قدرت هوى وشوقاً ... إليك لكنت سطرأ في الكتاب قال محمد بن يحيى الصولي: والبيت لأبي تمام.

وكتب آخر إلى أحمد وإبراهيم ابني المدبر، وقد نالتهما محنة وردفتهما نعمة: بسم الله الرحمن الرحيم:

لو قبلت عنكما، أو دانيت قدركما، لقلت: جعلني الله فداك لكما. ولكني لا أجزى عنكما، ولا أقتل بكما. وقد بلغني المحنة التي لو مات إنسان بها لكتنته، ثم اتصلت بي النعمة التي لو طال إنسان فرحاً بها لكتنته. وتحت هذه:

وليس بتزويق اللسان وصوغه ... ولكنه قد خالط اللحم والدماء حدثنا بذلك إبراهيم بن المدبر، وهذا رأي لم يكن القدماء يرونه، بل كانوا يخاطبون الخلفاء بالتفدية فضلاً عن الوزراء.

وحدثني محمد بن يزيد المبرد قال: سأل المأمون أبا محمد يحيى بن المبارك عن شيء فقال له: " لا، وجعلني الله فداك يا أمير المؤمنين " ، فقال: لله درك ما وضعت واواً قط موضعاً أحسن من موضعها في لفظك. ووصله وجمله.

قال: وهذا لفضل أدب المأمون، علم أن الفدية من أخلص الدعاء، والطف التوسل، وأن غاية موجود الإنسان، وأنفس ذخائره نفسه، جلت أم قلت. وقد قرئ في الكتاب خير الأولين والآخرين، وأجلهم قدراً، وأعظمهم خطراً، محمد صلى الله عليه وسلم قال له بن ثابت في جوابه لأبي سفيان بن حرب:

هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء

أهجوته ولست له بند ... فشر كما لخير كما الفداء

فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وفاء

وقد اختار الكتاب أن يسقطوه من مكاتبة القضاة هذا الدعاء، وذهبوا إلى انه ليس من أبواب حقيقة الجدل. وقال قمامة كاتب عبد الملك بن صالح: يجب أن يوفر التأييد على أصحاب السيوف دون القضاة، لأنهم أولى بأن يدعى لهم بالقوة. قال له عمرو بمسعدة: القضاء إلى التأييد في أحكامهم أخرج، لأنها في الدماء تمضي وفي الفروج والأموال.

وكتب ابن ثوابة إلى عبيد الله بن سليمان يعتذر إليه من تركه مكاتبته بالنقدية: " الله يعلم - وكفى به عليما - لقد أردت مكاتبتك بالنقدية فرأيت هيباً أن أفديك بنفس لا بد لها من الفناء، ولا سبيل لها إلى البقاء. ومن أظهر لك شيئاً يضمن خلافه فقد غش وألام، إذ كانت الضرورة توجب، وتحقق أنه ملق لا يتحقق، وعطاء لا يتحصل؛ وإن كان عند قوم نهاية من نهايات التعظيم، ودليلاً من دلالات الاجتهاد وطريقاً من طرق التقرب ". .

وكتب ابن القرية إلى بعض أصحابه، وذكر نفسه فقال: " وجعلها فداءك طيبة لك بذلك ". .

وما أحسن كتاباً كتبه أحمد إسماعيل إلى بعض الكتاب، وقد نال رتبة فنقص إخوانه في الدعاء: " الكبر أعزك الله معرض يستوي فيه النبيه ذكراً، والخامل قدراً. ليس أمامه حجاب يمنعه، ولا حاجز يحظره. والناس اشد تحفظاً على الرئيس المحظوظ، وأكثر اجتناء لأفعاله، وتتبعاً لمعائبه، وتصفتحاً لأخلاقه، وتنفيراً عن خصاله؛ منهم عن خامل لا يعبأ به، وساقط لا يكثر به. فيسير عيب الجليل يقدح فيه، وصغير الذنب يكبر منه، وقليل الذم يسرع إليه. والحال التي جردها الله لك، وإن كنت أراها دون حقلك، وناقصة عن همتك، وأرضاً عند سماتك؛ حال الحاسد عليها كثير، وآمال المنافسين إليها تسير.

والمودة تقتضي النصيحة، والمقة تدعو إلى صدق المشورة. وليس يجرس النعمة ويجوؤها، ويجسم الأطماع ويصرفها، ويستجيب القلوب النافرة ويطلقها؛ إلا ترك ما أراك تستعمله في ترتيب المكاتبة، وتمييز المخاطبة، والمخاضة في الفاظ الدعاء، والبخل بيسير الشاء. وتطبيق إخوانك فليس من حقلك أن تحطهم حال رفعتك، وأن تنقصهم دولة زادتك. كما ليس من حقلك عليهم أن يغالطوك فيمسكوا عن خطابك، ويتحاموا عن عتابك ". .

تحرير الكتاب

قال أبو بكر تحرير الكتاب خلوصه كأنه خلص من النسخ التي حرر عليها: وصفا عن كدرها. وقال الله تعالى: " إني نذرت لك ما في بطني محرراً " ، قال المفسرون: جميعاً خالصاً لبيت المقدس لا تشغله بغير خدمته، وحررت الغلام جعلته حراً بين الحرية والحرار.

قال الشاعر:

فما رد تزويج عليه شهادة ... ولا رد من بعد الحرار عتيق

قد صار الغلام حراً خلص من العبودية. ورجل حر خالص من العبودية. ورجل حر خالص من العيوب. وطين حر خالص من الحمأة والرمل.

وسأل أعرابي فقال: " أما تفضل على حر كريم الحرورية، أو مولى كريم المولوية، أو عبد كريم العبودية ". .

وقال بعض الكتاب: ليس الكتاب كل وقت على غير نسخة، ويحمر بصواب، وكل أوان، لأنه ليس أحد أولى بالأناة والروية وتوقي الاغترار، من كاتب يعرض عقله وينشر بلاغته، فينبغي له أن يعمل النسخ ويحمرها، ويقبل عفو القريحة ولا يستكرهها، ويعمل على أن جميع الناس له أعداء علماء بكتابه متفرغون له، منتقدون عليه.

وقال آخر: إن الابتداء بنظم الكلام ونثره فتنة تروق، وحدة تعجب. فإذا سكتت القريحة، وعدل التأمل، وصفت النفس، فليعد النظر، وليكن فرحه بإحسانه مساوياً لغمه بإساءتهن فقد قال الخوارج لعبد الله بن وهب الراسي: نبايعك الساعة فقد رأينا ذاك. فقال: "دعوا الرأي يبلغ أناه، ولا خير في الرأي الفطير". وقال معاوية لعبد الله بن جعفر: ما عندك في كذا؟ فقال: أريد أن أصقل عقلي بنومة القائلة، ثم أروح فأقول بعد تأملي بما عندي. وقال الشاعر:

إن الحديث يقف القوم خلوته ... حتى يعبره بالسبق مضمار

فعند ذلك تستعلي بلاغته ... أو يستمر به عي وإكثار

وكان قلم ابن المقفع يقف كثيراً فقبل له في ذلك فقال: "عن الكلام يزدحم في صدري فيقف قلبي لتحريره". والكتاب يتصفح أكثر من الخطاب لأن الكاتب والمخاطب مشافه مضطر، ومن يرد عليه كتابك ليس يعلم أسرع فيه أم أبطأت، وإنما ينظر أصبت أم أخطأت، أو أحسنت أم أسأت؟ فإبطائك غير قادح في إصابتك، كما أن إسراعك غير معيب على غلطك.

ووصف بعض الكتاب النسخ فقال: ينبغي أن يصحبها الفكر إلى استقرارها، ثم تحرر على ثقة تصحبها، وتأمل بعد التحرير من أولها إلى آخرها. فقد كتب للمأمون مصحف اجتمع عليه عليه، فكتب: بسم الله الرحيم وأغفل الرحمن فإن العين لم تعتبر ذلك حتى فطن هو.

وقال محمد بن عبد الملك للحسن بن وهب: حرر هذه النسخة وبكر بها فتصبح بها. فقال له محمد: قد كانت النسخة تامة فلم تصبحت. فقال: حتى تصفحت.

وحدثني أحمد بن إسماعيل قال: كان بعض الأغبياء ينظر في نسخة بعد نفوذ الكتاب فقبل له:

مستلب اللب معنى الشباب ... عذبه الهجر أشد العذاب

يؤمل الصبر وأنى له ... به وقد مكن منه التصاب

كناظر في نسخة يبتغي ... صلاحها بعد نفوذ الكتاب

قال بعض الكتاب: كانوا يسمون المحرر الإمام لأنه يأتي من الخط بما يؤتم. به قال: ومن هذا كتب الصبي أمامه إنما هو ما يأتى به ويتعلم عليه.

من زيد في دعاء المكاتبة له فشكر

قال الصولي حدثنا محمد بن زياد أبو عبد الله الزياتي قال: كان العتيبي محمد بن عبيد الله صديقاً لعمرو بن

عثمان القيني فكتب إليه العتيبي كتاباً فزاده في الدعاء فكتب إليه عمرو:

يا ابن الذوائب من قریش والذرى ... وسليل سادة ساكني البطحاء

حاشا لمثلك أن يراني قائلاً ... بكرامة تزري لديه برائي

لم ترض إذ كنتني وبدأت بي ... حتى دعوت الله لي ببقائي
ولو اقتصرت على التي هي قيمتي ... فيما بتت قضية الحكماء
لكنيت لي عمرو بن عثمان ولم ... تتبعه في العنوان حرف دعاء
فاترك جعلت فذاك إكرامي بما أحشى به عند الورى استغباني
فالعين تصغر أن تقدمها على ... أولاد حرب السادة الكبراء
حلوا من العز المنيع نيافة ... يحمون غيرهم ذرى العلياء

حدثني أحمد بن يحيى الأسدي قال: كتب إلي الحسين بن سعد فنقصني في الدعاء في الدعاء، فكتبت إليه: قد علمت أعزك الله أن السبب في العداوة بين محمد بن عبد الملك الزيات وإبراهيم بن العباس الصولي، أنه لما ولي وزارة المعتضد، نقص إبراهيم عما يستحقه من الدعاء، فلم تحتمل ذلك نفسه ورياسته وموضعه من الصناعة والدولة، فعاتبه في ذلك فلم يعتبه، فألهب له نار هجاء لا يطفئها الدهر، وعلامة ذلك قوله في كلام منشور قد ذكره ولي هذا الأمر، فما ظن أن الرياسة تنجذب إليه، ولا أن العز يتحصل له بحط إخوانه عن منزلتهم، ونقصهم عن مرتبتهم، فبخسني في المكتابة، وأساءني في المعاملة، في كلام له طويل، ثم نظم ذلك في شعر فقال: من رأى في الأنام مثل أخ لي ... كان عوبي على الزمان وخلي

رفعته حال فحاول حطي ... وأبى أن يعز إلا بذلي
وكان الخطاب في أول الأمر، ثم أنحى عليه بالهجاء.

فاتفقد - أعزك الله - إنصاف إخوانك وتجنب ظلمهم يصف لك غدير ودهم.
وحدثنا محمد بن العباس الشلمغاني، قال: لما ولي ابن بشر المرثدي كتابة الموفق بالله نقص أحمد بن علي المازراني في الدعاء حين كاتبه فكتب إليه:

كلما رمت أن أخلف من كا ... ن أمامي خلفت عمن ورائي
انقصت الدعاء لي منك لما ... زادك الله رفعة في دعائي
فلئن تم ما أراه وأصبح ... ت: وزيراً لتطعمني جزائي
قال: فاعتذر إليه وزاده في الدعاء.

وكان هذا في كلام منشور لمن كان قبل المازراني: وكنت آمل لك الرفعة، ولم أدر أنها تكسييني الضعة، وأرجو لك الشروة ولم أدر أنها تؤدبيني إلى الإضافة، فكان المنى طرد العنى، والدعاء سبب الشراء.
وكتب أبو حفص عمر بن أيوب إلى أبي الحسين أحمد بن محمد بن المدبر يعاتبه في أن دعا له " مد الله في عمرك "

يا جواداً بالثنا ... وبخيلاً بالعطا

إن " مد الله في عمرك " من كتب الجفا

ليس يستعمل هذا الصدر بين الأصفيا

ففضل يا فتى الناس بتفخيم الدعا

وكتب أحمد بن إسماعيل إلى صديق له ناقصه في دعائه ولحن في كتابه:

وما أنا والكتاب إلى صديق ... أدين من الوفاء بغير دينه
أعظمه ويحقرني وأدعو ... له باللفظ يدعو لي بدونه
وينقصني ولم أنقصه حقاً ... ويخشن لفظه من بعد لينه
فقام كتابه بالرد عني ... لكثرة ما تضمن من لونه
وقال أيضاً لآخر فعلبه مثل فعله :
رأيت الرياسة مقرونة ... بلبس التكبر والنخوة
إذا ما تقمصها معجب ... تتايه في الجهل والخلوه
ويقعد عن حق إخوانه ... وكلهم مسرع نحوه
قالوا: وكما أن النقص عن الرتبة مذموم فكذلك طلب الزيادة مكروه، لأن من طالب من الدعاء بما فوق محله،
تعرض لحطيطة من استحقاق. وإسقاط الترتيب جحد للحقوق، وإحاق للجليل بالدقيق. قال: وأنشدني علي
بن محمد بن نصر لنفسه في رجل نقصه في الدعاء:
لساني بالثناء عليك رطب ... وبالمكروه إن أحببت غضب
أتقصني الدعاء وذلك شيء ... على مثلي من الأحرار صعب
فإن عاودته فأجبت عنه ... فما لك إن أسأت إلي ذنب
وكتب عبد الصمد بن المعدل إلى صديق له كتاباً فيه: " وأمتع بك " فكتب إليه عبد الصمد، وقد روي هذا
لغيره:
أحلت عما عهدت من أدبك ... أم نلت ملكاً فتهت في كتبك
أم هل ترى أن في مكاتبي ال ... إخواني نقصاً عليك في حسبك
إن جعا كتاب ذي أدب ... يكون في صدره: وأمتع بك
أتعبت كفيك في مكاتبي ... حسبك مما يزيد في تعبك
ويروي هذا الجواب عن هذا:
كيف يحول الإخاء يا ألمي ... وكل خير أنال في سببك
إن كان ذنباً جناه ذو ثقة ... فعد بفضل عليه من أدبك
فأعف فدتك النفوس عن رجل ... يعيش حتى الممات في كنفك
وقد يزيد الرئيس تابعه في الدعاء إذا كان مغيضاً عليه لشيء ضره أو خالفه فيه، فيجري ذلك مجرى الاستهزاء
به وليس ذلك مما ذكرناه أولاً.
وكتب بعض الكتاب إلى بعض الأخلاء من إخوانه، وقد زاده في الدعاء: " علي - أعزك الله - الإعظام والهيبة
في هذه الحال، إلى ما لا لم أزل عليه قبلها من الإخلاص والطاعة، وعليك أن لا يمنعك النظر إلي بعين المودة، من
الأخذ مني لنفسك بحق الرياسة، ومن أطاعك لها رجاء أو هيبة فإني أطيعك لها وداً ومحبة " .

ما يتكاتب به الناس اليوم

يكتب الإمام إلى ولي عهد المسلمين: " من عبد الله أبي فلان الإمام الراضي بالله أمير المؤمنين إلى فلان ابن فلان . سلام عليك، فإن أمير المؤمنين يحمده عليك الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على محمد وآله " ، ثم يكتب بما يراد، ثم يقال: " فاعلم ذلك من رأي أمير المؤمنين، وكتب فلان ابن فلان باسم الوزير وباسم أبيه يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا " .

ويكتب عن ولي العهد مثل ذلك، إلا أنه يجعل مكان أمير المؤمنين ولي عهد المسلمين .
وكذلك كتب الإمام الديواني إلى الوزير .

وأما مكاتبة الوزراء، أمراء الناحية الأجلء، المساوين والمقارنين، فهي: " أطال الله بقاءك، وأدام عزك وكرامتك، وأتم نعمته عليك، وإحسانه إليك وعندك " . وربما زيدت لفظة ونقصت لفظة ودون هذا قليلاً " أطال الله بقاءك وأعزك أكرمك وأتم نعمته عليك وإحسانه إليك " .
وأول من كتب: " أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام عزه " سليمان بن وهب، وكان: " وأعزه " . ودون هذا: " أدام الله عزك وأطال بقاءك وأدام كرامتك وأتم نعمته عليك وأدامها لك " . ودون هذا: " كرمك اله وأبقاك وأتم نعمته عليك وأدامها لك " . ودون ذلك هذا الدعاء بإسقاط: " وأدامها " ، ودون ذلك: " حفظك الله وأبقاه وأمتع بك " ، ودونها: " عافان الله وإياك من السوء برحمته " . فأما مكاتبات الناس إلى الإمام أو إلى ولي العهد أو إلى الوزير، فيكتب: " لعبد الله فلان بن فلان، إلى كذا أمير المؤمنين، سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فإني أحمد إلى أمير المؤمنين الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم " ، ويكون ذلك في سطرين وبعض آخر، ثم يقال: " أما بعد أطال الله بقاء أمير المؤمنين، وأدام عزه وتأييده وكرامته، وسعادته وحراسته، وأتم نعمته عليه، زاد في إحسانه إليه، بفضلته عنده وجميل بلائه لديه، وجزيل قسمه له " ، ويكون في سطرين . ثم يقال بعد ذلك: " فقد كان كذا " ، لأن جواب " أما بعد " بالفاء فقد كان كذا وكذا .

فإذا أتى على جميع المعاني المحتاج إلى المكاتبة فيها، فبلغ إلى الدعاء قال: " أتم الله على أمير المؤمنين نعمه وهناه كرامته، وألبسه عفوهم وعافيتهم، وأمنه وسلامته، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . وكتب فلان ابن فلان يوم كذا في شهر كذا " .

وإلى ولي العهد والوزير مثل ذلك، إلا أن الفرق بين الإمام وبينهما أن يكتب إلى الإمام مع السلام " وبركاته " وفي آخر الكتابة مثل ذلك، ويجذف " وبركاته " إلى هذين في التصدير ويثبت في آخر الكتاب، وقد ذكرت لك فيما تقدم .

ويكتب الوزير أيضاً الإمام لغير تصدير، إذا لم تكن الكتب منشأة من الدواوين . ويكتب الوزير في الحوائج لغير تصدير، وإذا كوتب أمير أو قاض: " أطال الله بقاء الأمير أو القاضي " ، لم يقل: أما بعد ولا سلام على أحدهما .

ومكاتبة النظراء تحتل كل شيء على حسب المودة .

قراءة الكتاب بعد كتبه وما جاء في ذلك .

قال محمد بن يحيى الصولي: حدثنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عتاب قال: حدثنا الحسن بن عبد العزيز الجروي قال: حدثنا عبد الله بن يحيى، قال: أخبرنا نافع بن يزيد، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن ابن سليمان بن زيد بن ثابت، عن أبيه، عن جده، قال: " كنت أكتب الوحي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يملي علي، فإذا فرغت قال: اقرأه، فأقرؤه فإن كان فيه سقط أقامه " .

وقال بعض الكتاب:

المح كتابك حين تكتبه ... واحرسه من وهم ومن سقط
واعرضه مرتاباً لصحته ... ما أنت معصوم من الغلط
وروي عن الأوزاعي أنه قال: العجم نور الكتاب، وإذا لم يعرض الكتاب، فمثله مثل رجل دخل الخلاء فلم يستنج.

ما جاء في رد جواب الكتاب والحض على التكاثر

قال الصولي: حدثنا أبو القاسم محول المستملي، قال: حدثنا محمد بن حميد قال: حدثنا حكام، قال: حدثنا عتبة عن العباس بن دريخ عن الشعبي عن ابن عباس قال: أرى رد الجواب - جواب الكتاب - كرد السلام. أنشدني عبيد الله بن عبد الله بن طاهر لنفسه:

حق التناهي بين أهل الهوى ... تكاتب يسخن عين النوى
وفي التداي لا انقضى عمره ... تراور يشفي غليل الجوى
ونحوه لغيره:

إذا الإخوان فاتهم التلاقي ... فلا صلة بأحسن من كتاب
إذا جاء الكتاب إلى صديق ... فحق واجب رد الجواب
ومن مليح ما قيل في التكاثر:

هل تذكرين إلى التجاوز بيننا ... ثم على الشجر الذي لم يغرس
إذ سر قلبي في يديك ومثله ... لك في يدي من الفصيح الأخرس

ومن مليح ما قيل في استبطاء الجواب، أبيات كتبت بها في صدر قصيدة لي سيدنا أمير المؤمنين أطل الله بقاءه، وهو إذ ذاك أمير:

ليس يأتي من الأمير كتاب ... ابتداء ولا يرد جواب
فإذا ما شكوت ذلك وعاتب ... ت: أتاني على العتاب عتاب
وأطاف الملام بي في الذي قل ... ت: ولم يأتي له إعتاب
ولسان الذي يغيب كتاب ... ناطق عنه حين عز الخطاب
فإذا أبطأ الجواب عليه ... فهو كالناطق الذي لا يجاب
وكم من رده وقد عرفوا منه حضوراً تجههم وعتاب
عذت بالأعذار إن كان ذنب ... دية الذنب عذرة ومتاب

ولما خرج يحيى بن عمر من المدينة إلى الكوفة فأقام بها كتب إليه أخوه أحمد بن عمرو
أيا سيداً قد رماني البعا ... د منه بأمر فظيع عجاب
فلما تمادى رماني الفراء ... ق وطالت بنا مدة الاغتراب
أقمت الكتاب مقام اللسا ... ن مني فاسمع لقول الكتاب
كأني أناجيك إن جاءني ... ورود البشير برد الجواب
ويقال: أجاب عن الكتاب يجيب إجابة، وقالوا: جابة، وفي المثل: " أساء سمعاً فأساء جابة " ، ثم استعمل في غير
المثل، فقال الشاعر:

أصم الصدى لم يدر ما جابة الرقى ... ولم يمس في ضحك الندى يتبلبل
وقالوا: أحببته جيبة. وليست بجودة مما تقدم.

حدثنا أشعث الضبي قال: كتب رجل إلى صديق له يستبطنى جوابه: " كتبت فما أجبت، وواصلت فما واترت،
وأضبرت فما وحدث " . قال: فكتب إليه صاحبه كتاباً عنوانه فلما فتحه إذا فيه:

الحفاء القبيح أحسن عندي ... من بغيض الخطاب للإخوان
قال الصولي: قوله: واصلت كتبي: جعلت واحداً في أثر الآخر، لا زمان بينهما ولا تمكث. فما واترت: أي
كتبت كتاباً بعد كتاب. وأكثر الكتاب يساوون بين واصلت الكتب وواترتها، وذلك جائز على القريب، فأما
اللغة فإنها توجب أن المواصلة لا انقطاع بينها، وأن المواصلة لا بد من انقطاع قليل بينها.

قال الأصمعي: يقال: ما في سيره ولا وتيره أي ما فيه توقف. وأنشد لامرئ القيس:

نجد مجد ليس فيه وتيرة ... وتذنبها عنه باسحم مذود

وأنشد لكعب بن زهير يصف بعراً الناقة:

وسمر ظماء ووترقن بعدما ... مضت هجعة من آخر الليل ذبل

وقال: قلت لزيد بن كثرة: ما السمر الظماء؟ فقال: البعرات، جعلني الله فداءك، ظمئت لعطشها وذبلت. قال:
واترقن تجيء الواحدة، ثم يكون انقطاع ما، ثم تجيء الأخرى، واضبرت وضبرت كتبت إضبارة كتب وجمعها
أضابير. وكذلك إضمامة وجمعها أضاميم مثل أضبارة وجمعها أضابير. وقالت امرأة من قيس: وقالت امرأة
قيس:

ليس بنا فقر إلى التشكي ... إضمامة كحمر إلا بك

أي لنا إبل مجتمعة أو خيل. وقال ابن الأحنف:

كتاب أتاني على نأيتها ... يخبر عن بعض أنبائها

فنفسي الفداء لهذا الكتا ... ب إن كان خط ياملأها

وقال:

يا من جعلت فداه ... ومن براني هواه

وكم قد كتبت كتاباً ... ييكى له من قراه

أنا الفداء لمن خط ... ه ومن أملاه

الشمس أحسن شيء ... رأيته حاشاه

وقال أيضاً:

أيا من لا يجيب إذا كتبنا ... ولا هو يبتدينا بالكتاب
أما في حق حرمتنا لديكم ... وحق إخواننا رد الجواب قال الأحنف:
ما لي أهان ولا تجاب صحائفني؟ ... وإلى متى أقصى لديك وأحجب؟
ما كان ضرك إذ كرهت إجابتي ... بيدك أن تستوصفي من يكتب
وقال أيضاً:

أعياني الشادن الريب ... أكتب أدعو فلا يجيب
من أين أبغي دواء ما بي ... وإنما دائي الطبيب
آخر:

كتبت إلى ظلوم فلم تجبني ... وقالت: ما له عندي جواب
فلما صرفت فكري أتاني ... وقد غفل الوشاة لها كتاب
وفيه الوصل يشرق جانباه ... وقد رق التأول والخطاب
كتبت إليك والرقباء حولي ... إذا ما مر طير واسترابوا

قوله: وقد رق التأويل والخطاب من قول امرئ القيس:
وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ... ورضت فذلت صعبة أي إذلال
وأنشدني علي بن الصباح:

يا ذا الذي ضن عني ... برقعة ومداد

ضايقتني في بياض ... تزينه بسواد

وقد أخذت سواد ... ي ناظري وفؤادي

ومن مליح ما قيل في تأخير الكتاب:

يا جامعاً شيم السيادة والذي ... ورث النجاة منجياً عن منجب

أشكو إليك لهيب نار في الحشا ... تصبي بريح الشوق إن لم تجب

ماذا عليك وأنت بجر في الندى ... لوجدت من ماء المداد بمذنب

تجلو القذى بسواد سطر لائح ... في وجهه غرر الكلام المذهب

أصبحت تبخل بالكتاب فخفت أن ... تلقي الدواة يد وإن لم تكتب

حتى كأن الحوض جونة حنة ... منها وظهر الدرج ظهر العقرب

أرضى لخلك أن يرى مستعتباً ... من جفوة ويراك غير المعتب

ما كنت أخشى أن تضن بكاغد ... عني وقد يقع الذي لم أحسب

لا تحسبن كتبي فكاغد أروضكم ... عين الرخيص وأنت عين المسهب

وحدثنا علي بن الصباح قال: حدثنا أبو محكم قال: كان عبد الرحمن بن مسلم الباهلي باراً بزياد بن عبد الرحمن

القشيري صديقاً له، ثم غاب فلم يكتب إليه، ولم يجبه عن كتاب فقال زياد:

إخاؤك محض للصديق إذا دنا ... وعانيت ممزوج إذا لم تعاین
دنونا فاحمدنا الدنو وربتنا ... ببینك والتجرب عند التباين
فلم یأتنا منك الكتاب تقرباً ... وطاح جواب واصل للقرائن
فأجابه عبد الرحمن بن مسلم:

ما ذاك من نخوة ولا صلف ... ولا لضیق في القول والعطن
نحن بلوناك في الأمور فما ... تعرف من سيء ولا حسن
وقد قرناك بالوفاء فما ... تقرن إلا اعترضت بالقرن

من تعاطي الكتابة وادعاها وهو لا يحسنها

قال أبو بكر من مشهور ما قيل في ذلك:

حمار في الكتابة يدعيها ... كدعوى آل حرب من زياد
فدع عنك الكتابة لست منها ... ولو غرقت ثوبك في المداد
ولي من أبيات في بعض الكتاب:

إن كانت الكتبة بالشوم ... ورقتي الأخطار واللوم
فصغر الحلقة حتى ترى ... وأنت معلوم كمعدوم
فأنت لا شك على ما أرى ... اكتب من في العرب والروم
الدهر ذو ظلم ولكنه ... منك تشكي حال مظلوم
يأنف أن تحيا ولكنه ... تحت قضاء فيك محتوم

حدثني عبيد الله بن عبد الله قال: حدثني فضل البريدي قال: كان ولد محمد بن نصر بن بسام يقرؤون علي
الشعر، وكذلك أولاد عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم، وكانوا أدباء، وكان محمد بن نصر وعبد الله منفردين
من الأدب، فجلسا يوماً في مجلس فيه أولادهما، ومدت ستارة لم يسمع الناس بأحدق في الغناء ممن خلفها، وفي
الجلس ما يكون مثله في مجالس الخلفاء وأزيد، فغنت صاحبة الستارة شعراً لجرير:

ألا حي الديار بسعد إني ... أحب لحب فاطمة الديارا

فقال عبد الله محمد ابن نصر: لو لا جهل الأعراب ما معنى السعد هاهنا. فقال محمد: لا تغفل فإنه يقوي معدهم
ويصلح أسنانهم. قال: فقال لي علي بن محمد: يا أستاذ واصفح أيما شئت منهما واجعله أبي.

وقال ابن بازان الأصبهاني يهجو رجلاً من كتاب أصبهان وقد مات ختن له:

كاتب يبكي على ختنه ... دمعه جار على ذقنه

يعلم القرطاس في يديه ... أنه قد شذ عن وطنه

ليس يدري في كتابته ... ما قبيح الأمر من حسنه

قال الصولي أنشدنا هذا الشعر لعبد الصمد بن المعدل.

دعاء المكاتبات وأصوله وما حمد منه وذم

قد كره قوم من أهل العلم: " أطال الله بقاءك " . وروى عن حماد بن زيد أنه قال: أحدثها الزنادقة. وقال الأصمعي: هي من دعاء الزنادقة. وقيل: أصل يبطل هذا ويطلق التكتاب بها إذا كان الناس كلهم الآن عليها.

حدثنا إسحاق بن إبراهيم البزار، ومحمد بن سعيد الأصم قال: حدثنا علي بن حرب قال: حدثنا زيد بن أبي الزرقاء، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن معمر بن أبي حبيبة، عن معاذ بن رفاعة بن نافع قال: شهدت نقرأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم علي وطلحة وعمر وعثمان والزبير وسعد رضي الله عنهم يذكرون المؤودة فقال عمر: أنتم أصحاب رسول الله تختلفون في هذا، فكيف بم بعدكم؟ هم أشد اختلافاً. فقال علي: إنما لا تكون مؤودة حتى يأتي عليها الحالات السبع. فقال عمر: صدقت أطال الله بقاءك. قال ابن لهيعة: المعنى لا تكون مؤودة حتى تكون نطفة ثم علقمة ثم مضغة ثم عظماً ثم لحماً، ثم يظهر مستهلاً، إذا دفنت فقد وئدت، لأن من الناس من قال: إن المرأة إذا أحست بحمل فتداوت لتسقطه فأسقطته فقد وأدته. فأخبر أن ذلك لا يكون مؤودة، حتى يأتي عليها الحالات السبع.

وقد ذكر الله عز وجل: المؤودة فقال: " وإذا المؤودة سئلت، بأي ذنب قتلت " .

وكانت العرب إذا ولد لأحدهم ابنة، دفنها حية. فيقال: وأدها يندها وأداً. فدى صعصعة ابن ناجية الجاشعي خلقاً من البنات، يبأل دفعها إلى آبائهن لأنهم كانوا يفعلون ذلك للضر والفقر فقال الفرزدق يفخر بهذا: وجدي الذي منع الوائدا ... ت فأحيا الوئيد ولم يواد

حدثنا علي بن الصباح قال: حدثنا أبو مسلم السعدي قال: حدثني ابن علية، عن سوار بن عبد الله العنبري، عن الحسن قال: دخل الزبير على النبي صلى الله عليه وسلم وهو عليل فقال: ما الذي بعدك جعلني الله فداؤك؟ فقال: " يا زبير أما تركت إعرابيتك بعد؟ " كأنه كره قوله: جعلني الله فداؤك. والفداء يمد ويقصر. وقد روى رافع بن جريح أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم وقد قال: " يكون قوم من أمتي يكفرون بالقرآن وهم لا يشعرون كما كفرت اليهود والنصارى " . قال: قلت: جعلت فداك يا رسول الله وكيف ذاك؟ قال: " يقرون ببعض القرآن ويكفرون ببعضه " . في حديث طويل، حدثنا إبراهيم بن عبد الله النميري. قال: حدثنا حجاج بن نصير قال: حدثنا حماد بن إبراهيم الكرماني، عن عطية، عن عطاء بن رافع، عن عمرو بن شعيب، قال: كنت عند سعيد بن المسيب فقال: سمعت رافع بن جريح يقول. وذكر حديثاً طويلاً.

حدثنا أحمد بن يحيى ثعلب قال: حدثنا عبد الله بن شيث قال: كتب إلي بعض إخواني من البصرة إلى المدينة كتاباً صدره: " أطال الله بقاءك كما أطال جفاك، وجعلني فداك إن كان في فداؤك " وتحت ذلك:

كتبت ولو قدرت هوى وشوقاً ... إليك لكنت سطرأ في الكتاب

قال: وكانت الكتب قديماً يقال فيها: " وأتم نعمته عليك " فلما قال ابن الرقاع العاملي:

صلى الإله على امرئ ودعته ... وأتم نعمته عليه وزادها

وزاد الكتاب على ذلك: " وزاد في إحسانه إليك " .

وحدثنا أحمد بن يحيى ثعلب قال: سمعت ابن الأعرابي يقول تقول العرب: " وهبني الله فداك " بمعنى جعلني فداك، فأما " وقدمني قبلك " ، فإن أبا تذكوان القاسم بن إسماعيل حدثني قال: سمعت إبراهيم بن العباس يقول: ما أظن قول الكتاب: " وقدمني قبلك " إلا مأخوذاً من قول الأغر بن كابس العبدي في أخيه الصقر:

أخي أنت في دين وقربي كلاهما ... أسر بأن تبقى سليماً وأفخر
إذا ما أتى يوم يفرق بيننا ... نموت فكن أنت الذي تتأخر
قال: فقيل لإبراهيم: إن هذا يروى لحاتم. فقال: " وما على من لا يدري شيئاً في نسبته إلى غير قائله " . وهذا
وأشباهه كثير. وقد ذكرته مستوفى في كتابي كتاب " اللقاء والتسليم " ، الذي كتبت به إلى القاضي عمر بن
محمد بن يوسف .

ومن قديم ما قيل في " قدمت قبلك " : قول حنظلة بن عرادة، أنشدناه المغيرة بن محمد المهلبى، عن أبي محلم له
يخاطب قومه :

أسعد بن زيد أنطقني رماحكم ... وكنت مجرا ضحكة للمواشر
فهذا أوان الصبر قد مت قبلكم ... فموتوا حفاظاً بالسيوف البواتر

اللغة في دعاء المكاتبة

التأييد في اللغة التقوية. والأيد القوة، قال الله عز وجل: " بنيها بأيد " أي بقوة. فإذا قال: وأيدك، فكأنه قال:
قواك. فإذا قالوا: وتأيدده وكلاءته، فإنما قولون وحفظه. وفلان يكلاً القوم يحفظهم، فهو كالي لهم. فإذا قالوا:
وزاد في إحسانه وآلائه لديك. فإن الآلاء النعم، واحدها إلى وألى مثل عنب وأعنا. قال الله عز وجل: " فبأي
آلاء ربكما تكذبان " أي فبأي نعمه لما عدد في سورة الرحمن نعمه على عباده، أتبع كل نعمة بذلك توبيخاً لمن
كفر به، وجحد نعمه. فإذا قالوا: " وأدام عزك " فإن العز ضد الذل وأصله المنعة، وعز الشيء إذا امتنع وهو
من قوهم: أرض عزاز إذا كانت صلبة وقوهم " من عز بز " أي من غلب سلب، لأنه يقال بزّه كذا أي أخذه
منه.

قال الصولي: ودخلت يوماً على بعض الوزراء، وهو يقرأ كتاباً، من عامل له، فمر فيه على " قد علم الله
نصحي واجتهادي وإيالي " فقال ما معنى إيالي؟ قلت يريد حسن قيامي. حدثنا أحمد بن يحيى ثعلب قال: سمعت
ابن الأعرابي يقول: سمعت العرب تقول: آل ايلة فلان يؤولها أو لا وإيالة إذا كان حسن القيام عليها.
فأما قولهم: وجميل بلائه لديك، فإنني سمعت أبا العباس أحمد بن يحيى ثعلب وقد سئل عن بيت زهير:

رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم ... فأبلاهما خير البلاء الذي يبلى
فقال المعنى رأى الله إحسانهما فصنع إليهما خير الصنيع الذي يبتلي به عباده لأنه يبتلي بالخير والشر والصحة
والسقم. قال محمد بن يحيى الصولي: وقال أبو عبيدة: فاخترهما بخير ما يختبر به لا بشره، لأن الابتلاء عنده
الاختبار، ومنه " لنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين " ، أي ولنختبرهم، وقد علم ذلك عز وجل
كيف يكون، ولكنه يريد أن يقع منهم فعل له يقع عليه الجزاء والعقاب، لأنه لا يعذب على علمه ماذا فعلوا،
فقد علم كيف كان، وعلمه عز وجل سواء فيما يكون وفيما كان إلا أنه لا يوجب الجزاء للعباد، وعليهم على
ما يعلم منهم من إحسان وإساءة إلا بعد وقوع الفعل من العباد.

وسئل محمد بن يزيد النحوي عن قول العجاج في الثور:

وفي الحجوز وفتى الولي ... ونية حيث انتوى منوي

فقال: يريد الدعاء له كأنه يكون بمكان فيه وسمي ثم يأتي الولي. ونية يريد وجهة يفتقدها الثور حيث انتوى

توجيه منوى، أراد حين ذهب فأبي مصرف فاعلاً إلى مفعول فيريد رزق تيناً بهذا المطر حيث توجه إما دعاء له وإما إخبار عنه وعن حاله، فكان هذا عندي مما تفرد بالقول فيه حتى أنشدنا أحمد بن يحيى ثعلب بعد ذلك للأعشى أعشى شيبان:

يا عمرو اقصد نواك الله بالرشد ... وأقر السلام على الإبقاء والقصد
وبك عيشاً تولى بعد جدته ... طابت أصائله في ذلك البلد
ف قيل له: ما معنى نواك الله؟ فقال: رعاك الله الرشده حين انتويت وحين نويت، فصح ذلك عندي، وعلمت أنه من كلام العرب.

ومن ملح ما قيل في " مت قبلك " ما حدثنا به المبرد قال: كنت عند أبي العباس بن ثوابة، فوردت عليه رقعة البحري وفيها:

اسلم أبا العباس واب ... ق ولا أزال الله ظلك
وكن الذي يحيا لنا ... أبداً ونحن نموت قبلك
لي حاجة أرجو لها ... إحسانك الأوفى وفضلك
واجد مشترط علي ... ك قضاءها والشرط أملاك
فلئن كفيت مهمها ... فلمثلها أعددت مثلك
فكتب إليه: قد قضاها الله، ولو أفنيت المال، وهدمت الحال.

التاريخ وما قيل في معناه

تاريخ كل شيء غايته ووقته الذي ينتهي إليه، ومنه فلان تاريخ قومه في الجود أي الذي انتهى إليه ذلك. وسئل بعض أهل اللغة ما معنى ذلك فقال: معنى التأخير. وقال آخر هو إثبات الشيء. ويقال: ورخت الكتاب تورخاً لغة تميم، وأرخته تاريخاً لغة قيس. وتاريخ وتاريخان وتواريخ. وأرخ كتابك هذا وورخه. ولكل نبوة ومملكة تاريخ: فأما العرب فكانوا يؤرخون بالنجوم قديماً؛ وهو أصل، ومنه صار الكتاب يقولون: نجمت على فلان كذا حتى يؤديه في نجوم. وأنجمة جمع نجوم. والعرب تخص بالنجم الشريا، يقولون إذا طلع النجم يريدون الشريا ومنه قولهم:
طلع النجم غدیه ... فابتغى الراعي كسيه

والنجم بعد هذا سائر النجوم يدل الواحد على جميعها، كما يقال: أهلك الناس الدينار والدرهم يراد الجنس. وعلى هذا قرأ أبو عمرو بن العلاء: " وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار " ، والنجم ما نجم من النبات، ومن الرأي ما ظهر وهو غير هذا.

وكانت العرب تؤرخ بكل عام يكون فيه أمر مشهود متعارف، فأرخوا بعام الفيل، وفيه ولد النبي صلى الله عليه وسلم، وكان في السنة الثامنة والثلاثين من ملك كسرى أنوشروان.

وأرخت العرب بعام الخنات لأنهم تماوتوا فيه، وعظم عندهم أمره فقال النابغة الجعدي:
فمن يك سائلاً عني فإني ... من الشبان أيام الخنات

مضت مائة لعام ولدت فيه ... وعشر بعد ذلك وحجتان
وأرخت قريش بموت هشام بن المغيرة المخزومي لجلالته فيهم، ولذلك قال شاعرهم:

وأصبح بطن مكة مقشعراً ... كأن الأرض ليس بها هشام

وروي عن الزهري والشعبي، أن بني إسماعيل أرخوا من نار إبراهيم عليه السلام إلى بنائه البيت، حين بناه مع إسماعيل، وأن بني إسماعيل أرخوا من بنيان البيت إلى تفرق معد. ثم كانوا يؤرخون بشيء شيء إلى موت كعب بن لؤي. ثم أرخوا بعام الفيل إلى أن أرخ عمر بن الخطاب رضي الله عنه من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم. وكان سبب ذلك أن أبا موسى كتب إليه: إنه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب ليس لها تاريخ، فلا ندري على أيها نعمل. وروي أيضاً أنه قرأ صكاً محله شعبان. فقال: أي الشعابن الماضي أم الآتي؟ فكان سبب التأريخ من الهجرة، بعد أن قالوا: نؤرخ بعام الفيل، وقالوا: من المبعث، ثم أجمع الرأي على الهجرة. وقالوا ما يكون أول التاريخ؟ فقال بعضهم: شهر رمضان، وقال بعضهم: رجب فإنه شهر حرام والعرب تعظمه، ثم أجمعوا على الحرم، فقالوا: شهر حرام وهو منصرف الناس من الحج. وكان آخر الأشهر الحرم فصيروه أولاً لأنها عندهم ثلاثة سرد ذو القعدة وذو الحجة والحرم، والفرد رجب، فكانت الأربعة تقع في سنتين، فلما صار الحرم أولاً وقعت في سنة.

قال الصولي وسألت أبا ذكوان عن أرخت وورخت. فقال: مثله أكدت الأمر تأكيداً، ووكدته توكيداً لغة تميم، وبها نزل القرآن: " ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها " . وأما التاريخ بلغة قيس فهو الذي يستعمله الناس، وأما التواريخ لغة تميم فما استعمله كاتب قط، وإن كانت العرب تتكلم به. وغلبت العرب الليالي على الأيام في التاريخ، لأن ليلة الشهر سبقت يومه ولم يلدها وولدتهن ولأن الأهلة لليالي دون الأيام، وفيها دخول الشهر، وما ذكرهما الله عز وجل إلا قدم الليالي قال الله تعالى: " سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما " . وقال: " يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل " . وقال جل اسمه: " سيروا فيها وأياماً آمين " .

والعرب تستعمل الليل في الأشياء التي يشاركها فيها النهار دون النهار، لاستثقالهم الليل فيقولون: أدركني الليل بموضع كذا لهيبته. وقال النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقالوا: صمنا عشرًا من شهر رمضان، وإنما الصوم للأيام، ولكنهم أجازوه إذ كان الليل أول شهر رمضان. وأنشد أبو عبيدة:

فصامت ثلاثاً من مخافة ربها ... ولو مكثت خمساً هناك لصلت

وأما الشهور فإنها كلها مذكرة، إلا جهادى الأولى وجهادى الآخرة. ويكتبون من شهر كذا إلا في ثلاثة أشهر، يكتبون في شهر رمضان لقول الله عز وجل: " إن كنتم تعلمون شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن " . ويقولون: في شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر، لأن الربيع وقت من السنة، فخالوا إذا قالوا: من ربيع ولم يذكروا الشهر أن يظن أنه من الوقت. قال الراعي:

شهري ربيع ما تذوق لبوئهم ... إلا حموضاً وحمّةً وذويلاً

كل ما انكسر واسود من النبت فهو ذويل. فإذا رأوا الهلال أول ليلة كتبوا " وكتب ليلة الجمعة غرة كذا

ومستههل شهر كذا ومهل شهر كذا " ، لأنهم يقولون: استههل الهلال، وأهل الهلال، ولا يقولون: هل ولا أهل ولا استههل، ومن قال ذلك فقد أخطأ .

والاستهلال الصوت والصياح، ومنه استهلال الصبي صياحه وبكاؤه إذا ولد. فلما كانوا يكبرون عند رؤية القمر كل أول ليلة من الشهر وفي أول سائر الشهور لقربهم بمضي الخارج من وقت الحج، وسرورهم بالموسم، نسبوا الرؤية إلى فعلهم فقالوا: استههل وأهل، وسموا القمر هلالاً لهذا المعنى. وأهل مكة يجتمعون ويوقدون النار ويلعب ولدانهم وعبيدهم عندها كل أول ليلة، من سائر الشهور، إلى وقتنا هذا لفرحهم بقرب وقت الحج.

ويكتبون ليلة الإهلال لغرة كذا ولا يكتبون لليلة خلت، ولا لليلة مضت إلا من الغد لأن الليلة قد مضت. وإن كتبوا يوم الجمعة قالوا: أول يوم شهر كذا، ولا يكتبون مستههل ولا مهل لأن الهلال إنما يرى بالليل. ويكتبون في اليوم الثاني لليلتين مضتا، فإذا جاز ذلك، كتبوا لثلاث خلون وأربع مضين، وكتبوا لثمان خلون فيحذفون الياء ويشبتون الألف في الخط.

فإذا أضافوا الليالي أنبتوا الياء للإضافة، لأنه لا يكون تنوين مع إضافة وإنما سقطت الياء للتنوين، فيسقطون الألف عند ذلك في الخط، فيكتبون لثمان ليال، ومنهم من يشتها. وسنذكر ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى. وإنما أنثوا إلى قولهم: لعشر خلون، لتقدم الليالي على الأيام كما ذكرت، فإذا جاوز العشر قالوا: لإحدى عشرة ليلة خلت ومضت ولاثنتي عشرة ليلة. وإنما قالوا: ههنا خلت ومضت لأن الترجمة بليلة فوحدوا الفعل لذلك. ويكتبون: خمس عشرة ليلة خلت، وإن شأوا كتبوا: للنصف من شهر كذا، ولا يكتبون لخمسة عشرة ليلة بقيت، كرهوا ذلك لأنه شبيه الاستثناء، ولا يكون إلا أقل مما استثنى منه، ولكن يكتبون بعد النصف بيوم: لأربع عشرة ليلة بقيت. وقد كره أهل الورع ذلك، لأنهم لا يدرون كم بقي لنقصان الشهر وتمامه فيكتبون: لإحدى وعشرين ليلة خلت، والكتاب على غير هذا. فإذا كان آخر ليلة من الشهر كتبوا: سلخ كذا لأنهم يقولون: انسلخ الشهر انسلخاً، وسلخت أشهر كذا سلخاً وسلوخاً. ولو كتب كاتب في ربيع الأول ولم يقل في شهر، أو في رمضان ولم يقل في شهر، جاز وليس بالمختار. قال الشاعر:

جارية في رمضان الماضي ... تقطع الحديث بالإيماض

ولا يدخلون في شهر من الشهور الألف واللام إلا في الحرم لأنه أول السنة فعرفوه لذلك كأنهم قالوا: هذا الذي يكون أبداً أول السنة. ولا يكتبون: لليلة بقيت وأنت فيها كما لم يكتبوا: لليلة خلت وأنت فيها. والعرب تسمى أول ليلة من الشهر ليلة البراء لتبرء القمر من الشمس، ويسمونها النحرية، لأن الهلال نحرها، أبي رؤي في نحرها وأولها. قال ابن أحر:

ثم استمر عليها واكف همع ... في ليلة نحرت شعبان أو رجباً

نحرت شعبان كان في نحرة صدره لأنها أوله كما نحرها الهلال إذا رؤي في أولها، ونحرة فعيلة من نحرت مثل قتلت فهي قتيلة .

قال بعض الكتاب: التاريخ عمود اليقين، ونافي الشك، وبه تعرف الحقوق وتحفظ العهود.

قال: ولا يقع التاريخ في شيء من الكتب السلطانية من رئيس أو مرؤس إلا في أعجاز الكتب. وقد يؤرخ

النظير والتابع ما خلص من الكتب في صدورهما.

وقيل: الكتاب بغير تاريخ نكرة بلا معرفة، وغفل بغير سمة. قال بعض الشعراء في تاريخ وفاة:

وكان يؤرخ علم القرو ... ن فيها هو ذا اليوم قد أرخا

فأما الذي يروي للمستوغر بن ربيعة فهو قوله - وهو عجيب من العمر في مثل زمانه:

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وازددت من عدد السنين سنينا

مائة أتت من بعدها مائتان لي ... وازددت من عدد الشهور مئينا

هل ما بقي إلا كما قد فاتنا ... يوم يكر وليلة تحذونا

ويقال: سبت وسبتان وأسبت وسبوت وأسبات وأسابت وأسايبت. وأحد وأحدان وأحاد وآحاد

وأحدات. واثنين واثنان وأثنان. وثلاثاء وثلاثاوان وثلاثوات. وأربعاء وأربعواوان وأربعاءات. وخميس

وخميسان وأخمسة وخميسات. وجمعة وجمعتان وجمع وجمعات.

ومحرم ومحرمات ومحاريم ومحارم، وصفر وصفران وصفرات وصفارى وأصفار وصفارين، وربيع

وربيعان وربيعات وأربيع، وتقول: شهر ربيع وشهرا ربيع وأشهر ربيع، وجمادى وجماديان وجماديات، ورجب

ورجبان ورجبات وأرجبة وأرجاب وأرجب وأراجيب ورجائب ورجابي. وشعبان وشعبانان وشعبانات

وشعابين. ورمضان ورمضانان ورمضانات وأرمضة وأرامضة وأراميض ورماضى ورماضين، وشوال وشوالان

وشوالات وشواويل، وذو القعدة وذوا القعدة وذوات القعدة وذوو القعدة، وذو الحجة مثله.

وتقول: أكريت الدار مشاهرة ومساهمة ومياومة ومناهرة ومليلة ومساوعة من الساعات.

قال أبو بكر محمد بن يحيى: حدثني محمد بن سهل الأحوال ابن أبي يوسف قال: سمعت ابن إسرائيل يذكر قلة

مدة الوزراء فقال: كان هذا الأمر مزامنة، ثم صار معاومة، ثم صار مشاهرة، ثم صار مياومة، ثم صار مسا

وتلجج ثم قال: مساعات، وأخطأ أراد مساوعة فلم يفهم.

الترجمة في المكاتب

أصل هذه اللفظة فارسية، وكذلك الترجمان، وقد تكلمت بها العرب بعد ذلك وعربتها. وإنما ذكرتها ههنا لأني

أحب أن لا يصفر كتابي هذا من شيء يحتاجه الكاتب. فأنا الآن أعمل منها باباً أقربه جهدي على من يريد

معرفته ليعلم كيف وجه الترجمة، فيعمل منها بعد هذا ما أراد.

وهي شبيهة بالمعمى وهو ما يكنى من الشعر كأن يسمى الألف فاخنة، والباء صقراً، والتاء عصفوراً ثم يردد

الحروف على هذا وترجمت له الأمر أوضحته له.

فحروب الله تعالى ب ت ث تسعة وعشرون حرفاً أولها الألف، وهي همزة لأنه لا يبتدأ إلا بمتحرك والألف

ساكنة لا تتحرك.

وقال أحمد بن يحيى: من أجل ذلك قالوا بعد أن أتوا بالألف واللام ليعملوا أن هذه هي الألف الحقيقية، وهي

التي تقع في آخر حتى ومتى وفي حياة وزكاة. فالحروف مع هذه تسعة وعشرون، ومنازل القمر في كل شهر

ثمانية وعشرون منزلاً، ثم يستتر ثم يستهل، فجعلت القمر تماماً ليكمل تسعة وعشرين منزلاً يازاء كل حرف

منزل.

حدثني عون بن محمد الكندي قال: حدثنا العباس بن هشام بن محمد بن السائب الكلبي، عن أبيه، عن جده، عن أبي صالح، عن ابن عباس أنه قرأ: " والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ". فقال: هي ثمانية وعشرون منزلاً ينزل القمر كل ليلة منزلة منها وهي: الشرطان، والبطين، والثريا، والدبران، والهقعة، والهقعة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجبهة، والزيرة، والصرفة، والعواء، والسماك، والغفر، والزبان، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعام، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد سعود، وسعد الأخبية، والفرغ المقدم، والفرغ المؤخر، وبطن الحوت، والقمر. فأتمتها بالقمر، حتى ساوت الحروف .
فإذا أردت أن تكتب " أنا " كتبت: " الشرطان، سعد الأخبية، الشرطان ". فإذا أردت أن تتبعها بإليك، كتبت: " الشرطان، سعد بلع، القمر، سعد الذابح ". فقس على هذا جميع ما يرد عليك إن شاء الله.

الديوان

قال الصولي: هو اسم فارسي تكلمت به العرب فقالوا: ديوان ولم يقولوا: ديوان بفتح الدال، كما قالوا: ديباج ولم يقولوا ديباج.

قال الصولي: حدثنا أبو العيناء قال: حدثني الأصمعي قال: كنا عند أبي عمرو ومعنا خلف الأحمر، فقال له رجل أسمعت من يقول ديوان بفتح الدال؟ فقال أبو عمرو: ولو جاز هذا لقالوا في جمعه: دياوين. فقال خلف: قد سمعت بعض حمير ينشد:

عديني أن أزورك أم عمرو ... دياوين تشقق بالمداد

فقال أبو عمرو لخلف: إن حمير لم يفدها هواء نجد. قال أبو العيناء: فسئل الأصمعي عن معنى البيت فقال: يعني أنه في بعث قد كتب اسمه فهو يخشى أن يحل به فيسقط.

قال محمد بن يحيى الصولي: والمعنى في أنه لو كان الواحد ديوان، لجمعوا دياوين، إن الياء تكون صحيحة أصلية، مثل ربحان ورباحين، فإذا قالوا: ديوان كان الياء زائدة، فإذا جمعوا انفتحت الدال فقالوا: دواوين، وهذا الصواب لأنهم يقولون: دون هذا فالواو أصلية كما قالوا: ميزان والأصل موزان، لأنه من الوزن، فالواو أصلية، فمن أجل استثاقهم الكسرة مع الواو، قالوا: ميزان قلبوا الواو ياء فلما جمعوا قالوا: دواوين ردوا الواو لانفتاح الدال. قال الشاعر:

يا زين كتاب الدواوين ... وفيلسوف الخرد العين

يا فتنة سيقت إلى فتية ... عزاب كتاب مساكين

وكان سبب تدوين الدواوين، أن أبا بكر رحمه الله، لما تولى الأمر جاءه مال من البحرين، بعد أن وعد كل من له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة به، فأعطى جابر بن عبد الله عدة كانت له. وجاء مال البحرين فقسمه، فأخذ الرجل عشرة دراهم والمرأة كذلك والعبد كذلك. جاء في العام الثاني أكثر من ذلك، فأصابهم عشرون درهماً لكل واحد منهم، فتكلمت الأنصار في ذلك فقالوا: نصرنا وآوينا فلنا فضلنا، فلم تساوي بيننا وبين من ليس له شيء مما لنا؟ فقال أبو بكر: صدقتم ذاك لكم، فإن كنتم عملتموه لله فدعوا هذا وإن كنتم

فعلتموه لغيره زدتكم، فقالوا: عملناه لله وانصرفوا.

حدثنا الغلابي قال: حدثنا عبد الله بن الضحاك عن الهيثم بن عدي عن عوانة قال: جاء مال من البحرين إلى أبي بكر رضي الله عنه، فساوى فيه بين الناس، فغضبت الأنصار وقالوا: فضلنا، فقال لهم أبو بكر: صدقتم إن أردتم أن أفضلكم فقد صار ما عملتم للدنيا، وإن شئتم كان ذلك لله والدين! فقالوا: والله ما عملناه إلا لله وانصرفوا. فرقي أبو بكر المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال: " والله يا معشر الأنصار، لو شئتم أن تقولوا: إنا آويناكم وشاركتناكم في أموالنا ونصرناكم بأنفسنا لقلتم، وإن لكم من الفضل ما لا تحصيه عدداً وإن طال به الأمد، فنحن وأنتم كما قال الغنوي:

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت ... بنا نعلنا في المواطنين فزلت

أبوا أن يملونا، ولو كانت أمنا ... تلاقي الذي يلقون منا مللت

هم أسكنونا في ظلال بيوتهم ... ظلال بيوت أدفأت وأكنت "

ثم توفي أبو بكر رضي الله عنه، وقام عمر بعده، فأتى أبو هريرة بمال من البحرين، وكان مبلغه ثمانمائة ألف درهم، وفي أخرى خمسمائة ألف درهم فخطب الناس فقال: " إنه قد جاءكم مال، فإن شئتم كلكم كياً، وإن شئتم عددنا لكم عدداً " ، فقال له الفيرزان - وروي أن غيره قال له - إن العجم تدون ديواناً لهم يكتبون فيه الأسماء وما لواحد واحد. فأمر باتخاذ الديوان.

وقد روي أن عمر بعث بعثاً فقال له الفيرزان: إن تخلف من هذا البعث أحد كيف تصنع به وكيف يعلم عاملك بخبره؟ قال: فما ترى؟ فأشار بالديوان فعمله، وجعل المال في بيت مال، وجعل الأرزاق مشاهرة، وكل ذلك برأي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتماع منهم فكان هذا أوله. ثم كثر المال عليه، فقالوا: بمن تبدأ؟ قال: أشيروا علي. فقالوا: أبدأ في الكتاب والقبض بنفسك. فقال: بل بآل رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب عائشة في اثني عشر ألفاً في كل سنة، وكتب سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في عشرة آلاف، لكل واحدة وكتب بعد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه في خمسة آلاف، ومن شهد بدرًا من بني هاشم، ومن مواليهم، ثم كتب عثمان بن عفان في خمسة آلاف، ومن شهد بدرًا من بني أمية ومواليهم على سواء.

ثم قال: قد بدأت بآل الرسول صلى الله عليه وسلم وبأقاربه فيمن ترون أن نبدأ بعدهم؟ فقالوا: بنفسك. قال: بل بآل أبي بكر فكتب طلحة في خمسة آلاف وبلالاً في مثلها. ثم قال للناس: بمن أبدأ؟ قالوا: بنفسك. قال: صدقتم فكتب لنفسه، ولمن شهد بدرًا، من بطون قريش، خمسة آلاف خمسة آلاف. ثم كتب لمن شهد بدرًا من الأنصار أربعة آلاف أربعة آلاف. فقالوا: قصرت بنا عن إخواننا المهاجرين. فقال عمر: لا أجعل الذين قال الله: " للفقراء والمهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ينتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون " كمن كانت الهجرة في داره، فرضوا. ثم كتب لمن شهد أحدًا بثلاثة آلاف لكل واحد منهم. ثم فرض لمن شهد فتح مكة في ألفين ألفين. وأنشد الطالقاني:

يا قمر الديوان يا ... من صرت فيه علماً

كأنا في كبدي ... أنت تجر القلما

وقال مجنون بني عامر يذكر أن للرقباء دواوين عليه:

إني أرى عائدات الحب تقتلني ... وكان في بدنها ما كان يكفيني
في كل منزلة ديوان معرفة ... لم تبق باقية ذكر الدواوين

تحويل الديوان من الفارسي إلى العربي

قال أبو بكر: حدثنا القاضي عمرو بن تركي قال: حدثنا القحمني قال: كان بالبصرة والكوفة ديوانان لإعطاء الجند والمقاتلة والذرية بكتاب بالعربية، وديوان بالفارسية. وبالشام ديوان بالعربية لمثل ذلك، وديوان بالرومية. فحول ديوان العراق إلى العربية أبو الوليد صالح بن عبد الرحمن البصري، وهو مولى بني مرة بن عبيد من بني سعيد بن زيد مناة بن تميم وكان من سبي سجستان. وكان صالح يكتب لزادان فروخ على الدواوين أيام الحجاج، وكان أول من جمع له الغزاة أن زياداً قال: فاستكتب عليها زادان فروخ الأعور، فبقي إلى هذا الوقت قال: فلما رأى الحجاج ذكاء صالح قربه، فقال لزادان فروخ: إن الأمير يقدمني عليك، وأنت سبي منه، وما أحب ذلك، فلم يزل يؤخره عنه والحجاج يطلبه، فقال له زادان فروخ: لا بد للحجاج مني لأنه لا يجد من يقوم بحساب ديوانه غيري، فقال له صالح: إنه إن أمرني بنقل الحساب إلى العربي فعلت، قال: فانقل شيئاً منه بين يدي ففعل، فقال زادان فروخ: لكتابه الفرس التمسوا مكسباً غير هذا.

قال وقدم الحجاج صالحاً فقلب صالح الديوان إلى العربي وكان كتاب العراقيين كلهم غلماناً وتلاميذه. وكان ديوان الشام إلى سرجون بن منصور، وكان رومياً نصرانياً، كتب معاوية ولمن بعده إلى عبد الملك بن مروان، ثم رأى عبد الملك منه توانياً، فقال عبد الملك لسليمان بن سعد مولى الحسين - وكان على مكاتبات عبد الملك والرسائل: ما أحتمل سحب سرجون، أفما عندك حيلة في أمره؟ فقال: بلى أنقل الحساب إلى العربية من الرومية، فقال: افعل. فحوله، فولاه عبد الملك جميع دواوين الشام وصرف سرجون فلم يزل سليمان بن سعد على ذلك إلى أيام عمر بن عبد العزيز رحمه الله. ثم إن عمر بن عبد العزيز وجد عليه فعزله، واستكتب مكانه صالح بن كثير الصداي من أهل طبرية.

قال الصولي: حدثنا علي بن الصباح يقول: سمعت الحسن بن رجاء يقول: ناظر فارسي عريباً بين يدي يجيى بن خالد البرمكي فقال الفارسي: " ما احتجنا إليكم قط في عمل ولا تسمية، ولقد ملكتم فما استغنيتم عنا في أعمالكم ولا لغتكم، حتى إن طبيخكم وأشربتكم ودواوينكم وما فيها على ما سمينا، ما غير تموه كالإسفيداج والسكباج والدوغباج، وأمثاله كثيرة وكالسكنجيين والخلنجيين والجلاب، وأمثاله كثيرة وكالروزنامج والاسكدار والفراونك، وإن كان رومياً ومثله كثير، فسكت عنه العربي. فقال له يجيى بن خالد: قل له: " اصبر لنا نملك كما ملكتم ألف سنة بعد ألف سنة كانت قبلها لا نحتاج إليكم ولا إلى شيء كان لكم ". قال: وما سمعته العرب فاحتاجت إلى استعماله في نظم أو نثر، فقد أعربته فصار عربياً بتكلمها به وإعراها إياه. ألا ترى إلى امرئ القيس لما خرج يريد ملك الروم فرأى الفراونك، وفعله وإنه مقطوع الذنب كيف وصفه وعربه فقال في قصيدته التي أولها:
سما لك شوق بعد ما كان أقصرا
فقال فيها:

إذا قلت روحنا أرن فرائق ... على جلعد واهي الأباجل أبترا

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
قال أبو بكر: واعترضني خير لطيف في الفرائق ليس من الكتاب فذكرته: حدثني عون بن محمد الكندي، قال:
كان ابن شاهك عدواً لأحمد بن أبي أمية، وكان فيه تأنيث فولاه إسحاق بن إبراهيم عملاً، فقال ابن أبي أمية
يخاطب إسحاق ويذكر ابنه بابن شاهك، وجعل الذي رماه به كالفرائق، وما معه كاخريطة فقال له:

" قل " للأمير أدام الله نعمته ... قولاً له عند أهل الرأي تحصيل
إن ابن شاهك قد وليته عملاً ... أضحى وحقك عنه وهو مشغول
بسكة أحدثت ليست بشارعة ... تفضي إلى عرصة في جوفها ميل
يرى فرائقها في الركض مندفعاً ... ينوي خريطته والبغل مشكول
وهذا نحو قول أعرابي يصف صاحباً له، تزوج فلم يفتق ليله فأنشد:
فبات يسري ليله ولم ينم ... ولم يجاوز سيره قيس قدم
وأنشد هارون بن عبد الله لدعبل، يهجو الحسن بن وهب، لما ولي البريد بنحو قول ابن أبي أمية:
ألا أبلغ أمير المؤمنين محمداً ... رسالة ناء عن جانبه شاحط
بأن ابن وهب حين يشحج شاحج ... يمر على القرطاس أقلام غالط

أحب بغال البرد حياً مداخلاً ... دعاه إلى غشيانها في المرابط
ولولا أمير المؤمنين لأصبحت ... أيور بغال البرد حشو الخرائط
وقد هجا عبد الرحمن بن عائشة ميمون بن إبراهيم صاحب البريد بنحو معنى ابن أبي أمية فقال:
ألا قولاً لميمون مقالاً ... يدبره الحكيم بحسن عقله
أما ينهك شيبك عن كتاب ... شغلت بخرجة عنا ودخله
يجيء به الفرائق مستعداً ... بغير يد فيأخذه برجله

الجزء الثالث

وجوه الأموال التي تحمل إلى بي المال وأصنافها ولمن تجب

الأموال ثلاثة

الفيء ووجوهه خمسة: منها ما أفاء الله على المسلمين، مما يجدونه في المدينة التي تفتح، بعد سكون الحرب،
وانتقال الدار من اسم الكفر إلى الإسلام، فذلك فيء وليس بغنيمة، كالذي فعل عمر رضي الله عنه في كنز
الفخير جان، وقد أتى به السائب، وقد ولاه قسمة الغنائم بنهاوند، لما فتحها الله على المسلمين، جمع السائب
الغنائم فقسّمها، ثم جاء من دله على الكنز، فاستخرجه، وكان سفتين من جوهر فأتى بهما عمر رحمه الله، فأمره
أن يبيعهما ويقسم ثنهما بين الذرية، ولم يأمره أن يخمسه، فتبين أنه جعله فيئاً ولم يجعله غنيمة .

والوجه الثاني: الجزية جزية رؤوس أهل الذمة.

والوجه الثالث: ما يؤخذ من نصارى تغلب وهو الزكاة مضاعفة .

والوجه الرابع: ما يؤخذ من تجارات أهل الذمة التي يختلفون فيها .
والوجه الخامس: ما يؤخذ من تجارات المشركين الذين يدخلون بلاد الإسلام بعهد. يؤخذ من تجارات أهل الذمة نصف العشر، ومن تجارات المشركين العشر.

والمال الثاني: الخمس ووجوهه أربعة فأولها الركاز، وهو دفن الجاهلية والكفار القدماء، إذا وجده إنسان أدى إلى السلطان خمسه وكانت له أربعة أخماسه.

والثاني: المعدن وهو الموضع الذي يوجد فيه الذهب والفضة والرصاص والنحاس والحديد، وقد اختلف فيه، فقال أهل العراق: فيه الخمس كالركاز، وقال أهل الحجاز فيه الزكاة معجلة.

والثالث: ما استخرج من البحر من العنبر واللؤلؤ، وقد اختلف فيه، فقال أهل العراق: لا شيء فيه وهو بمنزلة المسك. وروي عن عمر رضي الله عنه أن يعلى بن منبه كتب إليه، وهو على اليمن، أن رجلاً وجد عبرة على ساحل البحر، فكتب إليه عمر أنها سببة من سبب الله، فيها وفي كل ما أخرج البحر، من حليه الخمس. وقال ابن عباس رضي الله عنه: ذلك رأيي.

والرابع: كل ما غنمه المسلمون من مال المشركين فيه الخمس.

والمال الثالث: الصدقة وهي في العين من كل عشرين ديناراً نصف دينار، وفي الورق من كل مائتي درهم وهو ربع العشر، والحلي ما كان منه جوهراً، فلا شيء فيه، وما كان ذهباً أو فضة ففيه ربع العشر، وكذلك كل ما يركب لا زكاة فيه.

والماليك لا زكاة فيهم إلا زكاة الفطر. فإن كانوا للتجارة، كانت فيهم الزكاة، ولم يكن فيهم زكاة الفطر، وزكاة هذا كله أن يقوم ويؤخذ ربع عشر قيمته.

وفي الإبل، إذا بلغت خمساً، شاة، وإذا بلغت عشراً شاتان، وإذا بلغت خمس عشرة ثلاث شياه، وإذا بلغت عشرين ففيها أربع، فإذا بلغت خمساً وعشرين ففيها بني محاض، فإن لم تكن ابنة محاض فابن لبون إلى خمس وثلاثين، فإذا زادت واحدة ففيها ابنة لبون إلى خمس وأربعين، فإذا زادت واحدة ففيها حقة إلى ستين، فإذا زادت واحدة ففيها جذعة إلى خمس وسبعين، فإذا زادت واحدة ففيها حقتان إلى مائة وعشرين، ثم يكون في كل أربعين ابنة لبون، وفي خمسين حقة.

وبعض الفقهاء يقول: تستأنف الفريضة بعد المائة والعشرين كما كانت في الابتداء لكل خمس شاة.

وفي الغنم، في كل أربعين شاة، ثم ليس فيها شيء، حتى تزيد على عشرين ومائة، فإذا زادت واحدة ففيها ثلاث شياه إلى ثلاثمائة ثم يكون في كل مائة شاة، ولا يؤخذ من الزيادة شيء حتى تكمل مائة ويجول عليها الحول وهي على هذا التمام.

وفي البقر وجواميسها في ثلاثين بقرة تباع أو تبيعة، وهو جذع أو جذعة، وفي كل أربعين مسنة، وليس فيما بين الثلاثين إلى الأربعين شيء، وفي كل سبعين تباع أو تبيعان، وليس فيما بين الأربعين والستين شيء، وحسبها بعد في كل ثلاثين تباع أو تبيعة، وفي كل أربعين مسنة، ولا زكاة في شيء مما ذكرنا حتى تكون سائمة، والسائمة الراعية التي ترعى في كلاً المسلمين، الذين هم فيه سواء، فأما من لم يجد شيئاً من ذلك يعلفه ويمونه من ماله، فلا زكاة فيه وإن كثر.

وقال أهل الحجاز: لا زكاة في خيل ولا رقيق، إلا زكاة الفطر التي تلزم الأحرار، ولا في شيء من دواب الوحش، ولا زكاة في لؤلؤ ولا ياقوت ولا مرجان ولا لباس ولا في شيء من العروض، إلا زكاة التجارة، فهي على ما سميت لك فقس على ذلك.

وصدقة الأرض العشر مما يخرج الله منها، إذا بلغت خمسة أوسق. والوسق ستون صاعاً، والصاع خمسة أرطال وثلاث بالرطل البغدادي في قول أهل الحجاز. وهو في قول أهل الكوفة خمسة أرطال بهذا الرطل، إذا كانت الأرض تشرب سيعاً أو ماء السماء، وإن كانت تشرب بدولاب وما أشبهه ففيه نصف العشر. والفيء للمقاتلة والذرية وذوي الغناء عن الإسلام.

والخمس لمن قال الله عز وجل: " واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول ولذي القربى " ، يعني قرابة النبي صلى الله عليه وسلم، وهم بنو هاشم بن عبد مناف، وبنو المطلب ابن عبد مناف خاصة من سائر بني عبد مناف، لأن النبي صلى الله عليه وسلم جعل ذلك لهم، فكلمه عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف في أن يجعلهم في أسهم القربى مثل إخوانهم بني المطلب بن عبد مناف إذ كانوا في القربى مثلهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " لا أفعل إن بني المطلب ما فارقونا في جاهلية ولا إسلام وكانوا معنا كذا " وشبك بين أصابعه. وإنما رعى لهم النبي صلى الله عليه وسلم فعلهم، لما أدخلت قريش بني هاشم شعباً وقالوا: لا نكلمهم ولا نبايعهم، فدخل بنو عبد المطلب معهم وقالوا: لا نفارق إخواننا. واليتامى ليتامى سائر الناس ليس فيهم يتامى بني هاشم ولا يتامى بني المطلب.

والمساكين مساكين عامة ليس فيهم مساكين بني هاشم ولا مساكين بني المطلب. وقد قال قوم: اليتامى والمساكين يتامى هؤلاء ومساكينهم. وابن السبيل الضيف الفقير. واختلف الناس في الله وسهم الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال قوم: المعنى في قول الله عز وجل: " فإن لله خمسة " مفتاح كلام، كما يقال: هذا لله ولك وقد أعتقك الله وأعتقتك.

والخمس مقسوم على خمسة كما قال الله عز وجل: وقال قوم: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا أتى بالغنيمة، ضرب فما وقع فيها من شيء جعله للكعبة وهو سهم الله. هذا قول مالك. ثم يقسم ما بقي على خمسة أسهم: فسهم للنبي صلى الله عليه وسلم، ولذي القربى سهم، ولليتامى والمساكين وابن السبيل سهم سهم. وقال ابن عباس: كان الخمس يقسم على أربعة: فربيع للنبي صلى الله عليه وسلم ولذي القربى، فما كان لله وللرسول، فهو لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يأخذوا من الخمس شيئاً، والربيع الثاني لليتامى، والربيع الثالث للمساكين، والربيع الرابع لابن السبيل.

وقال قوم: كان خمس الله وخمس رسوله صلى الله عليه وسلم واحداً، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي بعضه ويصرف الباقي فيما أمناه الله له، وفيما يراه صلاحاً للمسلمين، والعدل قسمته والحق ما فعله عليه الصلاة والسلام.

وقد اختلف في سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسهم ذي القربى بعد وفاته، فقال قوم: سهم ذي القربى لقرابة النبي عليه الصلاة والسلام، وقال قوم: لقرابة الخليفة. وقال قوم: ما يكون سهم النبي صلى الله عليه وسلم للخليفة من بعده، ثم اجتمع رأيهم على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والغزو، وفي سبيل الله ومصلحة المسلمين، فكانا يصرفان في ذلك أيام أبي بكر ومن بعده من الأئمة رضي الله عنهم.

والصدقات للأصناف التي ذكرها الله عز وجل فقال: " إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم " .
فالفقراء في اللغة هم الذين لهم قوت مجهودة أن يكفيهم لا فضل لهم ولا عندهم. واحتجوا في ذلك بقول الراعي:

أما الفقير الذي كانت حلوبته ... وفق العيال فلم يترك له سبد
فقالوا: والمساكين الذي لا قوت له وقول الله عز وجل: " أما السفينة فكانت لمساكين ، يوجب خلاف ما
حده أهل اللغة في المسكين.
واختلف الناس في سهم المؤلفة قلوبهم، فقال قوم: قد انقطع اليوم سهم بقوة الإسلام وأهله فسهمهم يرجع على
الباقين. وقال قوم: بل للإمام أن يتألف من يراه هذا السهم له.
وأما سهم العاملين في الفريضة فأمرهم إلى الإمام يفرض لهم ما أراد.
وفي الرقاب قيل: هو أن يشتري العبد فيعتق. وقال بعضهم، وهو الشافعي: لا يشتري من الصدقة عبد فيعتق،
ولكن يعان المكاتب منها.
و " الغارمين " : وهم قوم أدانوا ديناً في غير معصية.
وفي سبيل الله: في الغزو. وقال بعضهم: في سبيل الله في الذين يقاتلون عليها أهلها، إذا منعوها حتى يؤدوها.
وابن السبيل: المسافر الذي تنقطع به نفقته يعطى منها ما يبلغه إلى بلده من الصدقة.

اللغة في أسنان الإبل وتعريفها

يقال لولد الناقة، ساعة تضعه أمه: " سليل " و " حوار " قبل أن يعلم أهو ذكر أو أنثى. فإن كان ذكراً فهو " سقب " وإن كان أنثى فهو " حابل " . فلا يزال حواراً حتى يفصل عن أمه، فيقال له: " فصيل " .
فإذا كان في الوقت الذي يحمل عليه فيه، وهو عند تمام سنة ودخول الثانية، فهو " ابن محاض " ، يجوز في
الصدقة لأن أمه قد تمحضت بحمل بعده، فلا يزال ابن محاض حتى تدخل السنة الثالثة، فيصير " ابن لبون " لأن
أمه قد صار لها لبن من غيره، فلا يزال ابن لبون، والأنثى ابنة لبون حتى تدخل السنة الرابعة فهو حينئذ " حق " و
والأنثى حقة.
فإذا كان في السنة الخامسة فهو " جذع " والأنثى " جذعة " والجذوعة وقت من الزمن ليست بسن. فإذا تمت
ودخلت السنة السادسة فهو " ثني " والأنثى " ثنية " . فإذا ألقى رباعيته في السنة السابعة فهو " رباع " و
والأنثى " رباعية " . فإذا ألقى السن الذي بعد الرباعية وذلك في السنة الثامنة فهو " سدس " و " سدس " ،
الذكر والأنثى سواء. وهو في كل هذا " بكر " والأنثى " قلووص " .
فإذا فطر نابه، أي انشق للخروج وذلك في السنة التاسعة، فهو " بازل " ، والأنثى بازل و " بازلة " يقالان
جميعاً، وهو عند ذلك " حمل " و " ناقة " للأنثى. وليس بعد ذلك سن إنما يقال: " مخلف عام " و " مخلف عامين
" وما زاد. فإذا كبر وعظم نابه فهو " عود " والأنثى " عودة " ويسميان بأسماء كثيرة في الكبر.

أسنان الغنم

يقال لولد الشاة، حين تضعه أمه، من الضأن كان أو من المعز، ذكراً كان أو أنثى: " سخله " و " بممة " . فإذا بلغت أربعة أشهر وفصلت عن أمها، فما كان من أولاد المعز فهو " جفر " والأنثى " جفرة " . فإذا قوي فهو " عريض " ثم " عتود " والذكر في هذا كله " جدي " والأنثى " عناق " وإن كان من أولاد الضأن فالذكر " حمل " و " خروف " ، والأنثى " رخل " و " خروفة " ، وتكون في السنة الثانية " جدعا " والأنثى " جدعة " . قال الأصمعي: يكون جدعاً من يأتي عليه ثمانية أشهر وتسعة ونحو ذلك. وفي السنة الثالثة " ثني " والأنثى " ثنية " ، وفي السنة الرابعة " رباع " والأنثى " رباعية " ، وفي الخامسة هو " سدس " و " سدس " ، وفي السنة السادسة هو " صالح " و " صالح " و " صالعة " بالسین والصاد، ويقال لما كان ذكراً من المعز عند الإجداع " تيس " والأنثى " عنز " .

أسنان البقر

يالق لولد اليقرة حين تضعه أمه " عجل " ثم " تبع " وهو الجذع، وبعضهم يقول: هو تبع إلى ثمانية أشهر وتسعة، ثم " جذع " إذا تمت له سنة، ثم في الثانية هو " ثني " والأنثى " ثنية " ، وفي السنة الثالثة " رباع " والأنثى " رباعية " ، وفي الرابعة " سدس " و " سدس " ، الذكر والأنثى فيه سواء، وفي السنة الخامسة " ضالع " والأنثى " ضالعة " . ومنهم من يجعله في السنة الثانية جدعاً، وفي الثالثة ثنياً، وفي الرابعة رباعياً، وفي الخامسة سدسياً وسدساً، وفي السادسة ضالعاً مثل الغنم.

أسنان الخيل

وإنما ذكرتها هنا لأن الكاتب لا يستغني عن علمائها، يقال لولد الفرس، حين تضعه أمه " مهر " والأنثى " مهرة " ، ويقال له: " خروف " فإذا فصل عن أمه فهو " فصيل " . فإذا استتم نبات روضه فهو " فلو " يقال: فليت وأفليت، فإذا أتى عليه حول فهو " حولي " ، فإذا استتم حولين فهو " جذع " ، فإذا أسقطت ثنيتها وخرج مكائهما، وذلك في العام الثالث فهو " ثني " ، وفي الرابع هو " رباع " وذلك إذا سقطت رباعيتها، وخرج مكائهما، فإذا سقط قارحاه وخرج مكائهما فهو " قارح " ، وليس بعد القارح سن، ولكن يقال: " قارح عام " و " قارح عامين " إلى ثمانية أعوام، ثم يقال له: " مذل " والجميع " مذال " .

ومن ألوان الخيل: أدهم وأخضر وأحوى وكميت وأشقر. والفرق بين الكميت والأشقر أن يسود عرفه وذنبه فيكون كميئاً وإلا فهو أشقر. وأصفر وأشهب وأبلق وأبرش وملمع وهو أيضاً بلقة. وكذلك المدنر والأشيم والمولع، كل هذه شيات اللون يخالف لون الفرس يتشكل فيه، فيسمى مدنراً إذا كان فيه دارات؛ وإذا كان فيه لوان متساويان فهو أبلق، وقس على هذا. وفرس لطيم، إذا أصابت غرته عينيه أو أحدهما أو خديه أو أحدهما، فإذا ابيضت أشفاره فهو مغرب فإذا لم تصب العينين والحدين واتسعت في جبهته فهي شادخة، وإذا دنت في جبهته وقصبة أنفه فهي شمراخ، فإذا عرضت في الجبهة فهي سائلة .

والقرحة كل بياض كان في جبهته ثم انقطع قبل الأنف؛ والرثم كل بياض أصاب الجحفة العليا قل أو كثر فهي

رثمة.

واللمظة كل بياض في الجحفة السفلى. والفرس المظ وأرثم. فإذا شاب الناصية بياض فهو أسعف، فإذا خلصت بياضاً فهو أصبغ، فإذا انحدر البياض إلى منبت الناصية فهو المعمم.

والتحجيل بياض يكون في قوائمه، أو في ثلاث أو اثنتين قل أو كثر. يقال: محجل أربع، فإذا كان البياض في ثلاث، قيل: هو محجل ثلاث مطلق يد أو رجل، والتحجيل مأخوذ من الحجل وهو الخلخال كأنه صار البياض موضعه، فإذا كان البياض برجليه قيل: محجل الرجلين، فإذا كان برجل واحدة قيل: أرجل، ويتشاعم به، لأن الحسين صلوات الله عليه قتل وهو على فرس أرجل. فإذا كان البياض في اليد اليمنى والرجل اليسرى مخالفاً فهو مكسور، وإذا كان في اليد اليمنى والرجل اليمنى فهو مطلق الأيمن ممسك الأيسر، وإذا كان بوجهه وضح ويأحدي يديه فهو اعصم، فإذا كان أبيض البطن، ولم يتصل ببياض التحجيل فهو أصبغ، وإذا صار في عرض الذنب بياض فهو أشعل، فإذا كان في أصل ذنبه فهو أصبغ، وإذا صار في عرض الذنب بياض فهو أشعل، فإذا كان في أصل ذنبه فهو أصبغ، فإذا بلغ البطن فهو أنبط فإذا ظهر من البطن فهو أبلق.

أحكام الأرضين

قال الصولي في الأرض ثلاثة أحكام: فأرض عشر غنمها المسلمون، فخمسة للإمام وتجعل أربعة أحاسها بين الذين افتتحوها ويبقى خمسة لمن سمي الله، فهي أرض عشر. وكل أرض استحياها إنسان، وقد كانت موثلاً قبل ذلك، فاستنبت لها ماء أو استخرج عيوناً فهي أرض عشر، إلا أن يكون الماء الذي أجراه إليها من ماء الخراج فتكون أرض خراج. فهذه الأرضون كلها لأهلها ملك إيمانهم لا شيء عليهم فيها غير العشر إن كانت تشرب سيباً أو من ماء السماء، وإن كانت تشرب بالدالية وأشباه ذلك مما يعتدل فيه، ففيها نصف العشر. وأرض افتتحت صلحاً على خراج معلوم، فأهلها على ما صلحوا عليه إلا أن يلزمهم غيره، والأرض ملك لهم. وأرض افتتحت عنوة، ففيها اختلاف؛ زعم بعضهم أن سبيلها سبيل الغنيمة تخمس وتقسم، فيكون أربعة أحاسها خطأً بين الذين افتتحوها خاصة، والخمس الباقي لمن سمي الله تعالى، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر. وقال بعضهم: حكمها والنظر فيها إلى الإمام، فإن رأى أن يجعلها فيئاً، فلا يخمسها ولا يقسمها، ولكن تكون موقوفة على المسلمين عامة ما بقوا كما فعل عمر بالسواد؛ فإنه لما افتتح المسلمون السواد قالوا: أقسمه بيننا، فقال: فما لمن جاء بعدكم من المسلمين؟ وأخاف أن تفاسدوا بينكم في المياه، فأقر أهل السواد في أرضهم وضرب على رؤوسهم الجزية، وعلى أرضهم الطبق، وهو الخراج، ومعنى الطبق والخراج واحد.

القطائع

قال أبو بكر: يروى عن طاوس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "عادي الأرض لله ولرسوله ثم هي لكم" يعني أنها تقطع للناس.

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أقطع جماعة من المهاجرين والأنصار من أموال بني النضير وكانت صفيماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصة. فكان فيمن سمي ممن أعطى أبو بكر رضي الله عنه أعطاه بئر

حجر؛ وعمر رضي الله عنه أعطاه بئر جرم، وعبد الرحمن بن عوف سؤالة، وأقطع صهيباً الصراطة، وأقطع الزبير وأبا سلمة بن عبد الأسد البريلة، وأقطع أبا دجانة وسهل بن حنيف مالا يقال له حرسة، وأقطع رجلاً من الأنصار أرضاً، فكان يخرج إليها فيرجع فيقال: نزل بعدك من القرآن كذا أو قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا. فقال: يا رسول الله إن هذه أرض تشغلي، فأقبلها مني فلا حاجة لي فيها فقبلها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: أقطعنيها فأقطعها إياها، وأقطع الزبير أيضاً بخير أرضاً فيها شجر ونخل، وقصرها، وكتب له بذلك كتاباً، وأقطع عتبة بن فرقد موضع داره بمكة مما يلي المروة.

ولما أسلم تميم الداري قال: يا رسول الله إن الله يظهرك على الأرض كلها فهب لي قريتين من بيت لحم، قال: " هي لك " ، وكتب له بها كتاباً فلما ظهر عمر رضي الله عنه على الشام جاءه بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر: " أنا شاهد ذلك فأعطاه إياها " . وبيت لحم هذه من القرية التي ولد فيها عيسى عليه السلام.

واستقطعه أبيض بن جمال المازني الملح الذي بمأرب، فأقطعته إياه، فلما ولى قال رجل: إنما أقطعته الماء العد، فرده ولم يرضه له كأنه عليه الصلاة والسلام، لما قال له: الماء العد، رأى أنه شيء بين الناس جميعاً. ولم يكن صلى الله عليه وسلم يقطع حق مؤمن ولا معاهد. فهذا جرت السنة في الإقطاعات.

وأقطع أبو بكر الزبير الجرف أيضاً مواتاً، وأقطع طلحة أرضاً، وكتب له كتاباً وأشهد له ناساً فيهم عمر، فأتى طلحة عمر بالكتاب ليختمه فقال: هذا كله لك دون الناس! لا أختم هذا. فرجع طلحة مغضباً إلى أبي بكر، فقال: أنت الخليفة أم عمر؟ فقال عمر ولكنه أبي وأبطل الإقطاع.

وأقطع أبو بكر لعبيدة بن حصن الفراري قطعة، وكتب له بها كتاباً، فأتى عبيدة عمر فأعطاه الكتاب، فبصق فيه ومحاه وسأل عبيدة أبا بكر أن يجدد له الكتاب فقال: لا أجد شيئاً رده عمر .

وأقطع عمر بن الخطاب الزبير العقيق أجمع.

وخرج رجل من أعل البصرة، يقال له نافع إلى عمر فقال: إن قبلنا أرضاً بالبصرة وليست من أرض الخراج ولا بأحد من المسلمين، فإن رأيت أن تقطعنيها آخذ فيها قضاء خليي، فكتب له أبي موسى: إن نافعاً سألني أرضاً على شاطئ دجلة، فإن لم تكن أرض جزية ولا خراج ولا أرضاً يجري إليها ماء جزية فأعطه إياها.

وأقطع عثمان خمسة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: الزبير، وسعداً، وابن مسعود، وأسامة بن زيد، وخباباً، من صوافي كسرى ومما جلا عنه أهله. ثم أقطع الخلفاء بعد ذلك.

حدثنا فهد بن إبراهيم الساجي، قال: حدثنا محمد بن إبراهيم بن نافع قال: قدم المهدي البصرة، وقاضيه عليها عبيد الله بن الحسن العنبري، فقال له: انظر بيني وبين أهل الممرات نهر من أنهار البصرة، فجلس لهم وحضر المهدي وحضر من يناظره، فقال عبيد الله: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ فقال: المسلمين كافة وفي مصالحهم إذا إقطاع من إمام فلا سبيل لأحد عليه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه قال: " من أحيا أرضاً مواتاً فهي له " وهذه موات. فقال: فوثب المهدي ووثب الناس حتى ألصق خده بالتراب عند ذكر النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: قد سمعت وأطعت. ثم عاد فقال: نفي أن يكون مواتاً والماء محيط بها من جوانبها، فإن أقاموا البيعة على هذا سلمت لهم. فلم يأتوا بيعة. وأحب عبيد الله أن يتحدث الناس بأنه حكم على المهدي بحكم، فخلط حكماً بسؤال فضح المهدي ووثب، وتفرقوا. فعزله المهدي وقال: والله ما أردت إلا أن يقول الناس حكم على

المهدي وإلا علمت أن الحق معي!.

وبلاد المسلمين عامر وموات، فالعامر لأهله والموات شيثان: شيء ملكه الناس فأحيوه ثم حرب ومات، فهذا الموات لأهله لا يملكه عليهم أحد، إلا ياذنهم وهو كالعامر. والموات الثاني ما لم يملكه أحد قط، فهذا الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من أحيا أرضاً مواتاً فهي له " ، والإحياء أن يأتي إلى موضع لا ينازعه فيه أحد ولا لأحد فيه أثر فيحوزه ويسوق إليه بكلفة ومشقة أو يبني فيه بناء .

والعروق أربعة: عرقان ظاهران وهما البناء والغرس، وعرقان باطنان كالبيسر والنهر. وقيل: من أقطع معدناً ملكه ملك الأرض وقيل: لا يملكه ملك الأرض إلا إن عمل فيه وإلا دفع إلى من يعمل فيه.

جزية رؤوس أهل الذمة

قال أبو بكر بن يحيى الصولي: قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجرة من مكة، والناس أخلاط مسلمون ويهود ومشركون ومنافقون. فوادع يهود المدينة كلهم، على أن يكفوا عنه ويكف عنهم. فلما غزا تبوك، أمره الله بوضع الجزية، فصالح أهل أيلة، وأدرح، ووادي القرى، وتيماء، ووضع عليهم الجزية، وقدم المدينة فوضع الجزية على من بالمدينة ومكة وخيبر واليمن ونجران، من أهل الذمة، ووضع الجزية على رقابهم: على الرجل ديناراً ونحوه، وليس في ذلك النساء ولا الصبيان، وفي تجاراتهم نصف العشر، فلما فعل ذلك بهم صارت لهم ذمة وعهد وجب عليه صلى الله عليه وسلم أن يمنعهم ممن ظلمهم، ويقاتل عنهم، ولم يكن لهم، وهم موادعون، أن يمنعهم ويقاتل عنهم وإن ظهر عليهم عدوهم.

وقال قوم: أول من أدى الجزية أهل نجران. وقيل صلى الله عليه وسلم من الجوس الجزية. حدثنا محمد بن يونس الكديمي وإبراهيم بن عبد الله اللجي، واللفظ للكديمي، قلا: حدثنا أبو عاصم قال: رأيت جعفر بن محمد رضي الله عنه بمكة، فقلت: يا ابن رسول الله حدثني قال: أفي هذا الموضع؟ فقلت: إن رأيت ولو حديثاً، فقال: سمعت أبي يقول: قال عمر بن الخطاب: لست أدري ما أصنع بالجوس! فقام إليه عبد الرحمن بن عوف، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسئل عنهم فقال: " استنوا بهم سنة أهل الكتاب " . فقلت: يا ابن رسول الله زدني فضرب بغلته وسار.

وكانت الجزية أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، على كل حالم ديناراً، وليس على النساء ولا الصبيان شيء. ثم ضرب عمر على أهل الشام - وبعضهم يقول على أهل الذهب - على الرجل أربعة دنانير وحنطة وزبيباً. ثم زالت الحنطة والزبيب. وضرب على أهل السواد ديناراً، والصفري اثني عشر درهماً بدنانير على الطبقة السفلى، وعلى الوسطى دينارين أربعة وعشرين درهماً، وعلى العليا أربعة دنانير بثمانية وأربعين درهماً، وأسقط ذلك عن النساء والصبيان. وإنما فعل عمر ذلك على قدر اليسار والطاقة.

فالذين يؤخذ منهم الجزية اليهود والنصارى والجوس والصائبون وقد أخذ عثمان رضي الله عنه من البربر. واستيداء الجزية بغير ضرب ولا عنف. ويقبل منهم مكان الدنانير والدراهم الثياب وما أشبهها. وروي عن علي عليه السلام أنه كان يأخذ في الجزية من صاحب المال مالاً، ومن صاحب الحبال حبالاً. ولا يأخذ فيها خمراً ولا

خنازير.

ولا يباع في الجزية بقرهم ولا حميرهم ولا مواشيهم. واختلف الناس في قوله عز وجل: " عن يد وهم صاغرون " ، فقال سعيد بن المسيب: يتعبون عند أخذها. قال أبو عبيد: لم يرد تكليفهم فوق طاقتهم، إنما أراد أن لا يعاملوا عند طلبها بالإكرام لكن بالإستخفاف. وكتب عمر إلى أمراء الأجناد أن يجتموا رقاب أهل الذمة، وأن تجز نواصيهم، وأن يركبوا الأكف عرضاً ولا يركبوا كما يركب المسلمون، وأن يربطوا الكسجات في أوساطهم ليعرف زيهم من زي المسلمين.

وقيل: وهم صاغرون يعطيها قائماً والذي يأخذها قاعد. وليس على عبد جزية. وإذا أخذت الجزية منهم لم يكن لهم أن يظهروا شركهم حتى يسمعو المسلمين، ولم يكن للمسلمين أن يتبعوهم فيما أخفوه عنهم. وعلى المسلمين أن يجروا عليهم أحكام المسلمين، قال: فهذا معنى وهم صاغرون. حدثنا محمد بن زكريا العلاني قال: حدثنا العباس بن بكار قال: حدثنا أبو بكر الهذلي قال: سمعت الحسن يقول: " كراء الدار جزية المؤمن؛ ولا يلزم الرهبان أصحاب الصوامع جزية، لفقروهم وتخليهم عن الدنيا " .

مبلغ ما كان يرتفع من الخوارج

ارتفع خراج الشام على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه خمسمائة ألف دينار، فلما أفضى الأمر إلى معاوية، قطع الوظائف على أهل المدن فوظف أهل قنسرين أربعمائة وخمسين ألف دينار، على الجماجم من ذلك الثلاثان. وعلى أهل دمشق أربعمائة وخمسين ألف دينار، على الجماجم من ذلك الثلاثان. وعلى الأردن مائة وثمانين ألف دينار، على الجماجم من ذلك الثلاثان. وعل فلسطين مثل ذلك، ثم جعل بعد ذلك يصطفي الأرض الجيدة ويدفعها إلى الرجل بخرابها وعلوجها، والخراج على أصله لا ينقص منه شيء.

ذكر مصر

دخل عمرو بن العاص مصر بصلح وعهد، فوضع عليهم من الجزية، على كل إنسان دينارين وثلاثة أراذب قمحاً، والأردب عند أهل مصر ست وبيات، والووية كيل يكون ما فيه من الحنطة ثلاثون رطلاً بالبغدادي، إذا كانت الحنطة ثقيلة، فإذا خفت كانت سبعة وعشرين رطلاً، وجعل عليه مع الثلاثة أراذب قسطين زيتاً وقسطين خلاً وقسطاً من غسل. والقسط كيل عندهم يكون ما فيه أربعة أرتال. ولهم من الشرط: أن لا تباع نساؤهم، ولا أولادهم، ولا أرضوهم ولا ديارهم، ولا تباع كنوزهم، ولا يزداد عليهم في جزيتهم.

فلم يزل ذلك على ذلك حتى ولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فكان إلى أيام عبد الملك بن مروان ألفي ألفي دينار، فإنه ولي أخاه عبد العزيز مصر فخط الأرضين، وذلك أنها كانت كثيرة فاقتطع أقواماً، وزاد ذلك على الجماجم فكانت تستأدى ألف ألف دينار، فرحلوا إلى عبد الملك يشكون، فلما رجعوا زاد عليهم عبد العزيز.

ذكر السواد

اختلف الناس في خراج السواد، فروى بعضهم أن عمر رضي الله عنه، بعث عثمان بن حنيف لمساحة السواد، فمسح الأرض وجعل على جريب الكرم عشرة دراهم، وعلى جريب النخل خمسة دراهم، وعلى جريب البر أربعة دراهم، وعلى جريب الشعير درهمين. وروي أيضاً أنه جعل على كل جريب غامراً وعامراً، درهماً وقفيزاً، وعلى جريب الرطبة خمسة دراهم. وعلى جريب الشجر عشرة دراهم وعشرة أقفزة، ولم يذكر النخل. وقيل: جعل على كل جريب عامر وغامر يناله الماء بدلو أو غيره عطل أو زرع درهماً وقفيزاً وألقى لهم النخل عوناً لهم. وجعل على كل جريب كرم عشرة دراهم، وعلى جريب الرطبة ستة دراهم، وعلى جريب السمسم خمسة دراهم، وعلى جريب الخضر من غلة الصيف، من كل جريب ثلاثة دراهم، وعلى جريب القطن خمسة دراهم. وروي عن الشعبي أن عثمان بن حنيف مسح السواد، فوجده ستة وثلاثين ألف ألف جريب، فوضع على كل جريب درهماً وقفيزاً ولم يذكر غير ذلك.

وإلى هذا ذهب أكثر الفقهاء أن عمر رحمه الله، إنما أوجب الخراج على أهل الأرض خاصة، بأجرة مسماة، لأن مخرج الخراج مذهب الكراء، فكأنه أجرى كل جريب بدرهم وقفيز في السنة، وألقى من ذلك الشجر والنخل، فلم يجعل لها أجرة، لأن قبالتها لا تطيب حتى تسمن، فيكون ذلك مع الثمر قبل أن يبدو صلاحه، وقيل أن يجعلوا. قال: وهذا الذي كرهه الفقهاء. وفي هذا الحديث حجة لمن قال: السواد فيء للمسلمين، وإنما أهله عمال للمسلمين بكراء معلوم.

قال أبو بكر محمد بن يحيى الصولي: وهذه الأحاديث كلها تدل على أن جعل الخراج على الأراضين، التي تغل من ذوات الحب والثمار، وعطل من ذلك الدور والمساكن التي ينزلونها فلم يجعل عليهم فيها شيئاً. وقال أبو حنيفة ومالك والثوري وابن أبي ذئب: إذا عمرت الأرض رأينا أن يزداد عليها، وإذا نقصت رأينا أن يوضع عنها. وقالوا ليس على الغامر شيء وإن بلغه الماء.

وحد السواد التي وقعت عليه المساحة من لدن تخوم الموصل ماداً مع الماء إلى ساحل البحر ببلاد عبادان من شرقي دجلة هذا طوله. فأما عرضه فحده من أرض حلوان إلى منتهى طرف القادسية المتصل بعذيب. فأما خراجه فإن الواقدي ذكر أنه سال عبد الحميد بن جعفر كم مبلغ خراج سواد الكوفة على عهد عمر؟ قال: سبعون ألف ألف درهم.

وروي عن محمد بن كعب القرظي، قال: أخبرني أهل الأرض بالعراق، أنه بلغ الخراج على عهد عمر وعثمان رحمهما الله مائة ألف ألف. فلما ولي معاوية صار إلى خمسين ألف ألف وهدايا النوروز والمهرجان خمسون ألف ألف لنفسه، وكان قد اصطفى أموال كسرى فكان يقطع فيها ويصل ويجيز من يشاء.

ثم بلغ الخراج في فتنة ابن الزبير ستين ألف وهدايا النوروز والمهرجان وصواف نحو عشرين ألف ألف، فلما ولي الحجاج صار إلى أربعين ألف ألف، وما كان يصل إلى ذلك إلا بضرب الأبدان، فلما قتل ابن الأشعث، قال الحجاج: الآن فرغت لأهل السواد فعمد إلى رؤسائهم، وأهل بيتوتاتهم من الدهاقين، فقتلهم صبراً وجعل كلما قتل من الدهاقين رجلاً، أخذ ماله وأضر بمن بقي منهم إضراراً شديداً، فخرجت الأرض فمات الحجاج والخراج خمسة وعشرون ألفاً، فكان الأمر على ذلك حتى ولي عمر بن عبد العزيز، فولى عبد الحميد بن عبد الرحمن السواد، وتقدم إليه أن يرجع إلى ما وضع عليهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أرضهم ورقابهم، ولا يقبل

من أطفاهم شيئاً في أعيادهم.

وأول من أحدث هدايا النوروز والمهرجان الوليد بن عقبة بن أبي معيط، ثم سعيد بن العاص بعده، فضح الناس إلى عثمان رضي الله عنه فكتب إليه فنهاه عن ذلك، فبلغ الخراج بعد هدية النوروز في أيام عمر بن عبد العزيز ستين ألف ألف فكان يخرج أعطيات الناس وينفذ إلى عمر بعشرة آلاف ألف درهم.

حدثنا القاضي عمرو بن تركي قال: حدثنا الوليد بن هشام القحذمي، قال: قال الحجاج يوماً للدهاقين - وقد اجتمعوا عنده: كم كان عمر بن الخطاب يجبي السواد؟ قالوا: مائة ألف ألف درهم. قال: فكم جباه زياد؟ قالوا: مائة ألف ألف. قال: فكم نجبيه نحن اليوم؟ قالوا: ثمانين ألف ألف. قال: فلم ذلك؟ فقال له ابن جميل بن بصبري دهقان الفلوجيين: هذا كله لبيتين قاهلما شاعركم الحارث بن حلزة. قال: وما هما قال لقوله:

لا تكسع الشول بأغبارها ... إنك لا تدري من الناتج

وأصيب لأضيافك ألبانها ... فإن شر اللبن الواج

فاستعمل عمالكم هذا فخرت الدنيا. ومعنى البيتين أن العرب كانت إذا أخصبت عاماً، لم تستقص الحلب، وتركت في الضروع بقية، وكسعت الضروع بالماء البارد لبتراد اللبن، فيكون أقوى لظهورها، فإن كان في العام المقبل جذب، كان فيها فضل وقوة حتى لا ينقطع اللبن، فقال هذا الشاعر: " لا تكسع الشول " وهي النوق، بأغبارها وهي بقايا ألبانها، إنك لا تدري من الناتج أي لعله أن يغار عليك فتؤخذ أو تموت، فيأخذها الوارث. فالصواب أن تتعجل منفعتها. أي فعمل العمال هذا وأخذوا العاجل، ولم يعمروا للعام المقبل فتقص الخراج لذلك.

وهو الخراج والخرج. قرأ أهل الكوفة خراجاً بالألف في كل القرآن إلا عاصماً فإنه قرأها هو وأهل المدينة وأبو عمرو خرجا بغير ألف، وكذا قرأ ابن عباس رضي الله عنه.

والخراج في اللغة الأجر، ومنه خراج الأرضين. وقال الفراء: الخراج أعم والخرج أقل، كأنه شيء من الخراج. ويقال للذمي: أذ خرج رأسك فخراج ربك خير. قال الكلبي: فرزق ربك خير.

وقال الحسن - وهو الصواب: فأجر ربك خير لك في الآخرة من أجورهم في الدنيا، إذ كان أكثر الناس على أن الخراج الأجر وأخرجه. وحكى التوجي أن أعرابياً قال: ما مواعيدكم إلا أسربة فجمع سراياً أسربة، وخرج وخروج مثل فلس وفلوس.

القبالات

قال أبو بكر: حدثنا محمد بن القاسم أبو العيناء قال: حدثني الأصمعي عن أبي الأشهب عن الحسن قال: جاء رجل إلى ابن عباس رحمه الله فقال: أتقبل منك الأبله بمائة ألف؟ فضربه ابن عباس وصلبه. وروي أن عبد الرحمن بن زياد قال: أنا قلت لابن عمر: إنا نتقبل الأرض فنصيب من ثمارها يعني الفضل، فقال: ذلك الربا العجلان. وقال ابن عباس رضي الله عنه القبالات حرام.

وقال سعيد بن جبير: لا خير في القبالة، وإنما كرهوها لأنها بيع ثمر لم يخلق بعد، ولم يبد صلاحه، وزرع نابت لم يستحصد، ومن قبل أن يزرع فهذا هو الغرر المنهي عنه.

وقال بعض الفقهاء فيها: إنه يحكم على الله أن يصير الأمر على ما يريد، فإذا كان الشيء معلوماً جازت القبالة

والإجارة، كأنه قول الرجل: قد أجرتك هذه الدار بعشرة دراهم شهراً معلوماً، فإن كانت الإجارة أربعة، أو جهل منها واحد جاز، فقد عرفت الدار وعرفت المدة ووصفت، وعرفت الدراهم، فهذه ثلاثة إن كانت قد عرفت، ولم يعرف هل يسكن الدار وحده أو هو وعياله؟ ولا يعرف عدد عياله، فهو جائز.

ما يفضل من المال

قال محمد بن يحيى: حدثنا عبد العزيز بن معاوية القرشي، قال: حدثنا جعفر بن عون قال: حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "اجتمعوا لهذا المال فانظروا لمن ترونه، إني سمعت الله عز وجل يقول: " ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم " ، والله ما لهؤلاء وحدهم. " والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم " . والله ما هو لهؤلاء وحدهم. " والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان " . والله ما من أحد من المسلمين إلا وله حق في هذا المال، أعطي منه أو منع حتى راع بعدن " .

وقال عمر يوماً: قد أعطيت الناس حقوقهم، وفضل عندي مال ما ترون فيه؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين لك حاج، وتوبك نواب لا تنوب غيرك، فخذه إليك لذلك فإن أنفسنا طيبة لك به. وعلي رضي الله عنه ساكت، فقال: ألا تتكلم يا أبا الحسن؟ فقال: قد أشار عليك القوم، فقال: لتقولن. فقال: لم يجعل علمك ظناً ويقينك شكاً، قال: قد قلت قولاً لتخرجن منه، قال: أما تذكر حين بعثك رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدقة، فأتيت العباس فمنعك الصدقة، فأتيتني فقلت: إن العباس منعي الصدقة، فانطلق معي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلقت معك فوجدناه مهموماً، فرجعنا ولم نقل شيئاً له، ثم رجعنا وقد طابت نفسه، فقال: " إن كان عندي ديناران فكأنهما يهمانني حتى وجهتهما " . فقلت: إن العباس قد منعي الصدقة، فقال: " إن عم الرجل صنو أبيه " قال: لا جرم إني أشكر لك المرتين جميعاً قال: فأشرك علي. قال: فإني أشير عليك أن تقسمه، فدعا عمر عبد الله بن الأرقم، فقال: كم في بيت المال؟ قال: كذا وكذا، قال: " لولا أرى أن أقرب لمنفعته أن يكون معاً، لقسمت الأول فالأول " ، فقام رجل من تقيف فقال: يا أمير المؤمنين أعده للبواقي فقال: " كلمة شر يستن بها أمراء السوء من بعدي، أعطاني الله جواهما، بل أعد لها ما أعده لها رسول الله صلى الله عليه وسلم تقوى الله وطاعته " .

ولما حبس معاوية على الناس أعطياهم، قام إليه أبو مسلم الخولاني وهو يخضب فقال: يا معاوية إن هذا المال ليس لك ولا لأبيك وأمك، فلم حبست على الناس العطاء؟ فغضب ثم نزل فدخل وأوماً إلى الناس أن تشتبوا ولا تتفرقوا، ثم خرج فعاد إلى المنبر فقال: أيها الناس إن أبا مسلم الخولاني قد قال ما قال فوجدت لذلك، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إذا غضب أحدكم فليغتسل " ، وصدق أبو مسلم فاغدوا على أعطياتكم فخذوها على بركة الله. ثم كانت فضول الأموال تحمل إليه فيصل بها من أحب وينفق كيف يريد.

مكاتبة المسلم وغيره

مضت السنة في المكاتبة أن يبتدئ المكاتب نفسه على المكتوب إليه.

يروى أن العلاء بن الحضرمي كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبدأ بنفسه. وروى الربيع بن أنس أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يكتبون إليه من فلان بن فلان إلى محمد رسول الله. وقد رخص في تقديم المكاتب. روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " إذا كتب أحدكم فليبدأ بنفسه إلا إلى والد ووالدة أو إمام ". وروى يحيى بن أبي كثير أن زيد بن ثابت كتب إلى معاوية فبدأ باسم معاوية.

قالوا: والكتاب إلى المسلم: سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. وإلى غير المسلم: والسلام على من اتبع الهدى. كذا كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل عظيم الروم وإلى كسرى وإلى مسيلمة الكذاب. وقد روي أنه رخص في رد السلام على الكافر، وأن رجلاً منهم كتب في آخر كتابه إلى النبي صلى الله عليه وسلم: سلام عليك. فأمر النبي صلى الله عليه وسلم الكتاب أن يرد عليه السلام. وإنما كتبوا في أول الكتاب سلام عليك، لأن النكرات أوائل الأشياء والمعارف الثواني، فافتتحوا بالنكرة فإذا رده عرفوا فقالوا: السلام عليك فعرفوه بألف ولام أي هذا ذلك الأول. كقولك في الكلام مري رجل فكان من أمره كذا وكذا، ثم قال لي الرجل: كذا، فعرفت أنه ذلك الذي ابتدأت بذكره.

وقال بعضهم إذا كان الشيء مهماً لا ينفصل بعضه من بعض تكلموا به مرة بالألف واللام، ومرة بطرحها كقولهم: قلت خيراً، وقلت الخير، وكسبت مالاً وكسبت المال، ولا أراك الله سوءاً ولا أراك السوء.

ما في الإنسان وغيره

وهذا شيء لا يسع الإنسان الثنايا، وهي أربع: اثنتان من فوق واثنتان من أسفل. ثم الرباعيات الواحدة رباعية مخففة الياء، وهن أربع ويقال لهذه الثمان الثغر. ثم الأنياب وهن أربع، ثم الضواحك والنواجذ، وهن ثمان، ويقال لهن العوارض، ثم الأرحاء وهي الأضراس: أربعة من فوق وأربعة من تحت في جانبي الفم، وهي الطواحن. واللحم مركب الأسنان وهو الفك، واللثة: اللحم الذي فيه الأسنان، والدردر مغارز الأسنان في اللثة، والعمور اللحم الذي بين الأسنان الواحد عمر، وأضراس الحلم ضراسان: ثنتان في آخر الأضراس من أسفل لا من أعلى إذا صار الإنسان رجلاً.

وما كان له خف مثل الجمل والنعامة، فإنه يقال لفمه: مشفر وما كان له ظلف قيل له: المرمة والمقمة والجحفلة للحافر والخراطيم للسباع والنسر والنتقار للطائر.

الأطعمة

يقال: الوليمة، ولطعام الأبنية الوكيرة، ولطعام الولادة الخرس، لأن ما تطعم النفساء خرسة، وطعام الختان إعدار، وطعام القادم من سفر نقيعة.

ويقال: قرمت إلى اللحم قرمة، وعمت إليه عيمة. ويقال: يدي من اللحم غمرة وزهمة لأن الزهم الشحم، ومن الزيد واللبن وضرة، ومن السمك سهكة. وربما حمل بعض هذا على بعض.

ويقال: أرغم الله أنفه، خص الأنف لأنه اطلع ما في الوجه، والرغام التراب يراد كبه الله على وجهه فإن أول ما يلصق منه التراب بالأنف، وقالوا: على رغم أنفه، ثم كثر حتى قالوا: على رغمه فألقوه الأنف. وقمقم الله عصبه جمعه حتى لا يحرك يداً لا رجلاً، والبحر قمقم من ذلك لأنه يجمع الماء. قالوا: والشأفة قرحة تخرج بالقدم فتكوى فتذهب، فإذا قالوا: استأصل الله شأفته، فكأنما قالوا: أذهب الله كما أذهب الشأفة. وإذا أصابه ذلك قيل: شفيت رجله شافاً.

أسكت الله نأتمته، النسيم الصوت الضعيف مخففة، ونأتمته مشددة ما ينم عليه من حركته.

سخم الله وجهه سوده من السخام وهو سواد القدر.

وأسخن الله عينه أي غمه وحزنه، لأن دمة الحزن حارة، ودمة الفرح باردة، فلذلك يقال: أقر الله عينك مأخوذة من القر.

وأباد الله خضراءهم أي سوادهم يريد أشخاصهم، ويقال للروضة الخضراء سوداء، ومنه صفة الجنيتين "

مدهامتان " وقال الأصمعي: أباد الله غضراءهم أي غضارتهم. والغضراء طينة خضراء علكة.

وفي جنبي الإنسا أربعة وعشرون ضلعاً، الواحدة ضلع وهي مؤنثة ويقال للمؤخرة منها ضلع الخلف.

وههنا شيء يكثر في كلام الناس فذكرناه: تقول للرجل إذا أمرته بأخذ الشيء: ها يا رجل، وللاثنين هاؤما،

وللجمع هاؤم وهايا امرأة فتكسر الهمزة للمؤنث، وللمرأتين هاؤما، كما للمذكر في الإثنين وفي الجمع هاؤن

تدخل النون لجمع المؤنث. فإذا أدخلت الكاف، قلت: هاك يا رجل، وهاك يا امرأة، وهاكاً للمذكرين والأنثيين،

وإن جمعت قلت للمذكران: هاكم وللاثنا هاكن. وإن أمرت بإعطائك شيئاً قلت للمذكر: هات يا هذا، وهاتيا

وهاتوا، وللمؤنث هاتي وهاتيا وهاتين. وإذا سألت رجلاً عن رجل قلت: كيف ذاك الرجل؟ وكيف ذاكما

وكيف ذاكم؟ وإذا سألت رجلين عن رجلين، قلت: كيف ذانكما وكيف أولنكم.

وإذا سألت رجلاً عن المرأة، قلت: كيف تلك المرأة الخطاب للرجل وأول الكلام للمرأة، وفي التثنية كيف

تانكما؟ وفي الجمع كيف أولنكم؟ فإذا سألت امرأة عن رجل، قلت: كيف ذاك الرجل؟ أول الكلام للرجل

وآخره للمرأة. وكيف ذانكما وكيف أولنكن؟ بالنون لأن آخر الكلام للمؤنث. فإن سألت امرأة عن امرأة،

قلت: كيف تلك المرأة وكيف تانكما وكيف أولنكن؟.

مدح الإيجاز في ابتداء المكاتبة والجواب

قال محمد بن يحيى: حدثنا الحسين بن يحيى الكاتب قال: حدثنا إسحاق قال: سمع جعفر بن يحيى يقول لكتابه: "

إن استطعتم أن تكون كتبكم توقيعات فافعلوا " .

وقال بعض الكتاب: الإيجاز في الابتداء أمكن منه في الجواب، ما لم يكن منه في إعدار وإنذار، وعود وبدء،

وفتوح وعهود.

قال أبو بكر: والذي عندي أنه يحتاج الكاتب والخطاب والشاعر، إلى أن يخرجوا معانيهم في أقواتها من الألفاظ،

على الاختصار، ما لم يحتج إلى إكثار، فإن احتج إلى ذلك جيء به بما لا بد منه. وأكثر ما يقع ذلك في الرغبة

والرهبة، ألا ترى إلى كتاب الله عز وجل وكلامه المعجز، كيف يكون فيه ذكر الجنة والنار، وقصة الأنبياء

عليهم السلام، والنقمة ممن كذبهم، والأمر بالاعتبار بما نزل بهم، فكانت الحكمة في تقرير ذلك مما يفعل العرب، وسأتي بفعلهم بعد. ولأن الإنسان قد يقرأ بعض القرآن ويحفظ شيئاً منه دون شيء، فلم يخل الله عز وجل: كل موضع منه من ترغيب وترهيب، وإذكار واعتبار تفضلاً منه على عباده، واستدعاء لطاعتهم، ونهيًا عن عصيانهم فوق التكرير لذلك.

وقد حدثني محمد بن يزيد المبرد النحوي قال: حدثني أبو محمد التوجي عن أبي عمر الأسدي، قال: قيل لأبي عمرو بن العلاء: هل كانت العرب تطيل؟ قال: نعم ليسمع منها، قيل: فهل كانت توجز قال: نعم ليحفظ عنها.

وقد روي في هذا لأبي دؤاد الإيادي:

يرمون بالخطب الطوال وتارة... وحي الملاحظ خيفة الرقباء

واحتج من زعم أن الجواب ينبغي أن يكون أكثر من السؤال، لأن السؤال عنده استعلام، والجواب إعلام، وقد قال الله عز وجل: " وما تلك بيمينك يا موسى " ، فافتضى الجواب أن يقول: " هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي " . ثم رأى أن منافعه بما كثيرة فاختصر ذكرها وقال: " ولي فيها مآرب أخرى " . وقالوا: " البلاغة لحة دالة " . وقالوا: " لا تنفق كلمتين إذا كفتك كلمة " وأنشدني أحمد بن إسماعيل الكاتب لنفسه:

خير الكلام قليل... على كثير دليل

والعي معنى قصير... يحويه لفظ طويل

وفي الكلام فضول... وفيه قال وقيل

أولا ترى إلى موضع الإيجاز بذكر الحجة في القرآن كيف أتى مختصراً معجزاً وهو فيه كثير، فمنه قوله تبارك وتعالى: " وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم " ثم قال عز وجل في مكان آخر يذكر هذا: " ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة " . ثم قال في مكان آخر، وقد أمرهم أن يعتبروا، فقرب ذلك عليه فقال: " وفي أنفسكم لأفلا تبصرون " ففي كل شيء من خلق الله عز وجل: للإنسان عبرة إلا أن أقربها وأخصرها أمر نفسه.

ثم اختصر عز وجل أمره ونهيه، وتحليله وتحريمه، واستثنى في الذي أحل، ما نذكره بعد من حرامه، وفي الذي أحل وقتاً يحرم فيه كل ذلك. إذا كتب أجزاءه فيه سطر واحد، وهو قوله عز وجل: " يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتل عليكم غي محلي الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد " فأمر بأن نوفي بعقوده ثم أحل بهائم الأنعام، واستثنى ما يحرم منها ما يجيء بعد، ثم ذكر أن هذا الحلال يحرم على الحرم. ولو أراد أبلغ الكتاب أن يجيء بهذه في أسطر كثيرة ما أمكنه على عجزه في حسن اللفظ والنظم. وهذا كثير يطول به الكتاب ذكرت ههنا طرفاً منه.

قال وأنشدني محمد بن يزيد المبرد في وصف خاطب:

إذا ما انتدى خاطباً لم يقل... له أطل القول أو قصر

انتدى تكلم في النادي وهو مجلس القوم، وقد روي إذا ما ابتدا

طبيب بداء فنون الكلا... م لم يعي يوماً ولم يهنر

فإن هو أظن في خطبة ... قضى للمقل على المكث

وحكى سيبويه أن امرأة من العرب كانت بغيا، فكان يقول لها القائل: خطب، فتقول: نكح وتمضي معه.
وحكى أن رجلاً كان عود رجلاً أن يجيئه في وقت من الزمان، فيمضي معه إلى موضع معروف، حتى ألفا ذلك
وعرفاه فكان يأتيه فيقول " ألا تا " فيقول: " بلى فا " يريد ألا تمضي؟ فيقول: بلى فامضي. وهذا كله إنما يجوز
مع الإفهام والمعرفة.

وأنشدني الحسين بن عمر الكاتب قال: أنشدني علي بن الحسين الإسكافي عن أبي محم للأحيمر السعدي في
كلمة:

وحاذر جواب المصمتين إذا سميت ... عيون العدى فالقول تبدو شواكله
من القول ما يكفي المصيب قليله ... ومنه الذي لا يكفي الدهر قائله
يصد عن المعنى فينزل ما تحاً ... ويذهب في التقصير منه تطاوله
فلا تك مكثراً تزيد على الذي ... عنيت به في خطب أمر تزاوله

وكلم رجل سقراط في أمر بكلام أطاله وزاد فيه على ما احتاج إليه فقال له سقراط: " أنساني أول كلامك بعد
آخره، وطول عهده مع تقارب أقطاره " .

وقال آخر: الكلام أوعية والمعاني أمتعة، وقد يجمع في الوعاء الواحد ضروب من الأمتعة.
وقالوا: السؤال بغى والجواب نصير.

وقال آخر: البلاغة في الجواب أوحده وأظهر.

وقالوا: الأجوبة أمهات الفوائد، تلدها بتلقيح السؤال.

وقالوا: " الجوابات المستكة " ولم يقولوا: المسائل المستكة.

وقالوا: لكل كلام جواب.

وقال سهل بن هارون: من فضل الجواب على الابتداء أن الابتداء يوجد في الجواب ولا يوجد جواب في ابتداء.
وقال آخر: " إني أدع الكلام خوفاً من الجواب، أنه يقع ولم يذكر " ، يريد قولهم: السكوت جواب.

قال الصولي: حدثنا يونس بن محمد الكديمي، قال: حدثنا عبد الله بن داود الحديمي، قال: سمعت الأعمش يقول:
" السكوت جواب " ، وهذا إنما أخذه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الصولي: حدثني محمد بن يونس الكديمي قال: حدثنا أبو بكر الحنفي قال: حدثنا سفيان الثوري قال: حدثنا
مالك بن أنس عن عبد الله بن الفضل، عن نافع بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: " الأيم أحق بنفسها من وليها، والبكر تستأمر وإذها صماهما " . وحدثني إبراهيم بن عبد الله قال: حدثنا
مسلم بن إبراهيم قال: حدثنا شعبة قال: حدثنا مالك بن أنس وذكر مثله.

وقال آخر:

يا من بنا يرتاب ... ترك الجواب جواب

وقال بشار وذكر أن السكوت يعني من لا ونعم:

وإذا قلت لها جودي لنا ... خرجت بالصمت من لا ونعم

وأشددني أحمد بن يزيد المهلب عن أبيه قال: أنشدني الحسين بن الضحاك لنفسه:

وإبائي مفحم بعزته ... قلت له إذ خلوت مكتتما

تحب بالله من يخلصك بالحب ... فما قال لا ولا نعماً

ثم تننى بمقلتي خجل ... أراد رجوع الجواب فاحتشما

فكنت كالمبتغي بحيلته ... برءاً من السقم فابتدا قسما

وقال بعض الكتاب: أكثر حيل الكتاب في بلاغته يقصد شيئاً فيأتي بغيره ويدرجه فيه.

قال محمد بن يحيى الصولي: ومن ذلك ما حدثنا الحسين بن فهم قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن يوسف عن أبيه

قال: دخلت على المأمون وفي يده كتاب ورد من عمرو بن مسعدة وهو يردد النظر فيه مرات، ثم قال لي:

أظنك قد أفكرت في تردادي النظر في هذا الكتاب. قلت: قد أفكرت في ذلك. قال: إني عجبت من بلاغته

واحتياله لمراهه كتب: كتابي إلى أمير المؤمنين، أعزه الله، ومن قبلي من قواده وأجناده، في الطاعة والانقياد على

أحسن ما تكون عليه طاعة جند، تأخرت أرزاقهم واختلت أحوالهم " ألا ترى يا أحمد إلى إدماجه الخلة في

الأجناد وإعفاء سلطانه من الأكتار، ثم أمر لهم برزق ثمانية أشهر.

ونحوه هذا ما حدثني به أبو علي السجزي قال: لما ولي عبد الله بن سليمان الوزارة أوصلت إليه كتاباً من عبيد

الله بن عبد الله وفيه شعر له:

أبي دهرنا إسعافنا في نفوسنا ... وأعفنا فيمن نحب ونكرم

فقلت له: نعماك فيهم أتمها ... ودع أمرنا إن المهم المقدم

فلما قرأ عبد الله هذا الشعر قال: ما أحسن ما احتال في شكوى حاله، بين أضعاف مدحه، فأوصل رقاعه إلي

فقضى كل حاجة كانت له.

وحدثني علي بن الصباح، عن حماد، عن الهيثم بن عدي، قال: كان الحجاج يستبطن المهلب في حرب الأزارقة

والمهلب، محسن مجتهد يستحق مكان الدم الشكر. فكتب إليه المهلب: " إن من البلاء أن يكون الرأي لمن تملكه

دون من تبصره " فلما قرأ الحجاج هذا أقصر عن مكاتبته بمثل ذلك.

وحدثني الحسين بن علي العنبري قال: حدثني محمد بن معاوية الأسدي، قال: لما ظفر المهلب بالخوارج وفرغ من

أمرهم قال الحجاج: الآن يرد كتاب المهلب طويلاً بوصفه، جامعاً لوصف أحواله، وإنه لحقيق بكل

وصف، وأهل لكل مدح. قال فورد كتابه.

" بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الكافيء بالإسلام فقد ما سواه، المعجل النعمة لمن بغاه، الذي يزيد من

شكره، ويرزق من كفره.

كتاب : أدب الكتاب

المؤلف : الصولي

أما بعد فقد كان من أمرنا ما أغنت جملته عن تفصيله. وكنا نحن وعدونا في مدة هذا النزاع على حالتين مختلفتين: يسرنا منهم أكثر مما يسوؤنا ويسوؤهم منا أكثر مما يسرهم؛ على شدة شوكتهم، واجتماع كلمتهم، وانزعاج القلوب لمخافتهم؛ حتى نوم بذكرهم الرضيع، وأصم لخوفهم السميع. فانتهزت منهم الفرصة عند إمكانها، بعد أن تنظرت وقت إبانتها؛ واستدعى النهل علله، وبلغ الكتاب أجله. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين " .

ونحو هذا، إلا أنه في التهديد، ما حدثني به عبد الواحد بن العباس الهاشمي، قال: سمعت الرياشي يقول: كتب ملك الروم إلى المعتصم كتاباً يتهدده فيه فأمر بجوابه. فلما قربت الأجوبة عليه لم يرضها وقال للكاتب: " اكتب " فأملى عليه: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد قرأت كتابك، وسمعت خطابك. والجواب ما ترى لا ما تسمع. وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار " .

وكتب أحمد بن يوسف إلى إسحاق الموصلي يدعوه ويعلمه أن عنده قلماً " المعنى أنا وقلم وأنت أعلم " . وكتب عبد الملك إلى الحجاج: " أما بعد فقد بلغني سرفك في سفك الدماء، وتبذير الأموال في الباطل، ومنعك الحق؛ فلا يؤنسك بي إلا طاعتك، ولا يوحشك مني إلا معصيتك " .

قال: فكتب إليه الحجاج: " أما بعد فقد وصل كتاب أمير المؤمنين، وما قتلت إلا فيه، ولا أعطيت إلا له. فإن رأى أمير المؤمنين أن يمضي لي سالفني، ويأمر لي بما أحب في مستأفني؛ فعل إن شاء الله " .

قال الصولي: حدثني محمد بن يزيد المبرد قال: حدثني العتيبي قال: كتب عبد الملك بن مروان إلى بعض ولده، وقد خالفه في شيء: " أما بعد فإني أمرتك بأمر فأتيت غيره، ووصيتك بوصية فأبيت إلا عصته. وخفت أنك بمنزلة الصبي الذي إذا أمر بشيء أباه، وإذا فهمي عن شيء أتاه؛ فيحتال له فيما ينفعه بأن ينهى عنه، وفيما يضره بأن يؤمر به. ويا سوأتي لمن هذه حاله والسلام " .

مكاتبة الإخوان

قال الصولي: حدثني محمد بن موسى بن حماد قال: سمعت الحسن بن وهب يقول: كاتب رئيسك بما يستحق، ومن دونك بما يستوجب، واكتب إلى صديقك كما تكتب إلى حبيبك.

وقال بعض الكتاب: غزل المودة أرق من غزل الصباية.

وقال غيره: إني لألد للمؤانسة كلذتي للملامسة.

وحدثنا أبو العيلاء قال: حدثنا الأصمعي قال: قال هشام: قد مرت لذات الدنيا كلها على يدي وفعلي، فما رأيت ألد من محادثة صديق ألقى التحفظ بيني وبينه.

قال الصولي: أو ما ترى حذق أبي تمام في قوله لآل وهب:

كل شعب كنتهم به آل وهب ... فهو شعبي وشعب كل أديب

إن قلبي لكم لكالكبد الحر ... ي وقلبي لغيركم كالقلوب
وهو القائل:

واجد بالخليل من برحاء الشو ... ق وجدان غيره بالحيب
وأشدنا أحمد بن إسماعيل لنفسه:

صدود الحبيب دعاء الغلي ... ل وأغلظ منه صدود الخليل
صددت فاشمت بي حاسداً ... عليك وحققت قول العذول
وقال أبو تمام إلى ابن الهيثم:

سلام الله عدة رمل خبت ... على ابن الهيثم الملك اللباب
ذكرتك ذكرة جذبت ضلوعي ... إليك كأنها ذكرى تصابي
وقال إبراهيم بن العلس الصولي:

أميل مع الذمام على ابن عمي ... وأقضي للصديق على الشقيق
وإما تلفني حراً وطاعاً ... فإنك واجدي عبد الصديق
وقالوا: طرف الصداقة أملح من طرف العلاقة.

ذكر الحساب

قال الصولي: لم نرد بذكر الحساب أن نذكر الضرب والقسمة والمعاملة، إما أردنا أن نذكر اللغة فيه
ووصف الكتاب به إذ كان الحساب قد عملت فيه كتب يزيد بعضها على جملة كتابنا هذا، ولئلا يخلو هذا
الكتاب من ذكره إذ كان أصلاً لا يستغني عنه الكاتب ولا بد لكل أحد منه.
يقال: حسب يحسب حساباً وحسباناً مثل بني يبي بناءً وبنياً والفعالان في مصدر فعل وفعل قد جاء، وإن
لم يكثرا قالوا: رفع رفعاً وخسر خسراً وغنى غنياً. قال الحارث بن خالد:
أجد بعمره غنياً ... فتهجر أم شاننا شانها
والحسبان العذاب، ومنه قول الله عز وجل: " ويرسل عليها حسباناً من السماء " ، والحسبان الاتكال، ولم
نسمعه إلا مع ذكر الله عز وجل: يقال على الله حسباناً وتكالني قال الشاعر:

على الله حسباناً إن النفس أشرفت ... على طمع أو خاف شيئاً ضميرها
وقال الله تعالى: " الشمس والقمر بحسبان " أي يطلعان ويغيبان بأوقات وقتها اله لا تزيد ولا تنقص،
فكانت كصحة ما يحسب. قال الله عز وجل: " وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية
النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً " .
وأجمع الحساب من كل جنس وملة، بكل خط ولغة، على أن تراكيب الحساب لا تعدوا أربعة: عدد يضرب
في عدد، أو قسمة عدد على عدد. أو إلقاء عدد من عدد. أو زيادة عدد على عدد، وتكلموا في أوائل
العدد ونهاياتها بكلام كثير، أحسنه ما قال الهندي: إن الأعداد تبتدئ من واحد وتنتهي إلى تسعة، ثم تكون

العشرة راجعة إلى حال الواحد على الرتبة.

وعلى هذا وصفوا حروفهم التسعة وقالوا: الحسب الهندي أخرج لكثير العدد إلا أن الكتاب اجتنبهه لأن له آله، ورأوا أن ما قلت آله، وانفرد الإنسان فيه بآله من جسمه، كان أذهب في السر وأليق بشأن الرياسة، وهو ما اقتصروا عليه من العقد والبنان وإخراج رؤوس الجمل في أواخر السطور، وخط التفصيلات عنها واحداً دون آخر، وفرعاً دون أصل. وعني بعض الكتاب بذلك، حتى خف عقده وصار يلحق بينانه، مثل ما يلحق ببصره، ولا يستين الناظر مواقع أنامله.

وقد شبه عبد الله بن أيوب بن محمد التيمي وميض البرق بخفة يد الحاسب فقال:

أعني على بارق ناظر ... خفي كوحيك بالحاجب

كأن تألقه في السما ... يدا كاتب أو يدا حاسب

وقال بعض الكتاب:

وناطق تخبر ألفاظه ... عن نعمات العود بالزمر

بيننا تراه عاقداً خمسة ... وستة صار إلى عشر

وصار من بعد إلى واحد ... كحاسب أخطأ في كسر

ومن أحسن ما قيل في تشبيه يد الحاسب بوميض البرق بعد قول التيمي قول عنتره من أبيات:

وفرضت للناس الكتابة فاحتذوا ... فيها مثالك والعلوم فرائض

وإذا خططت فأنت غيث معشب ... وإذا حسبت فأنت برق وامض

وإذا نهضت فأنت نجم ثاقب ... وإذا جلست فأنت ليث رابض

فبك التمثل حين ينعت فاضل ... وإليك يرجع حين يشكل غامض

وقد زعم قوم أن قول الله عز وجل: " فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة " . إنما

قصد به الإفادة إذ كانت العرب لا تعرف دقيق الأعداد وليست ممن يحسن الحسب واحتجوا بقول

الفرزدق:

ثلاث واثنتان فهن خمس ... وواحدة تميل إلى سمام

قالوا: فلولا أنه رأى ذلك فائدة ما قاله. واحتجوا بقول النبي حدثنا، حين أخبر أن الشهر قد يكون تسعاً

وعشرين " الشهر هكذا " وفتح أصابع يديه العشر " وهكذا وهكذا " وثني إحدى أصابعه في الثالثة. وقيل:

المعنى أنه لما فصل بين السبع والثلاثة بإفطار أخبر أنها كالمصلة، إذ كان قد أتى بها كما أمر فقد كملت له.

وقيل: بل أراد أنها كملت فدية حين وصل السبعة بالثلاثة.

وكان بعض العرب باع جوهرًا نفيساً، بألف درهم فقيل له: قد كان يساوي أكثر من هذا فقال: ما ظننت

أن عدداً أكثر من ألف. وقال ابن الرومي:

وكت حسبت فلما حسبت ... زاد الحسب على الحسية

وقال الخليل بن أحمد يهجو رجلاً كانت يداه مقبوضتين عن البذل فقال:

كفك لم يخلقا للندی ... ولم يك بخلهما بدعة

فكف ثلاثة آلافها ... وتسع مئيتها لها شرعه
وكف عن الخير مقبوضة ... كما نقصت مائة سبعة
وقال النابغة للنعمان في اعتذاره إليه: كن حكيماً في إنصافي، كما حكمت جارية كانت لها حمامة، فرأت قطعاً
محزرتة ستاً وستين فقالت:
ليت الحمام لي ... إلى حمامتيه
أو نصفه قديه ... ثم الحمام مائه
قالوا: وكانت لها قطعة وجعلت القطا حماماً. وقيل: أراد النابغة: احكم علي بعدل، كما حكمت هذه في
العدد فأصابته. والأول أجود وهو قول الأصمعي، أفلا ترى إلى النابغة كيف حكى هذا ونسب هذه الفتاة
إلى حكمة وعدل حين أحسنت العدد فقال.
واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت ... إلى حمام سراع وارد الشمد
الشمد الماء القليل.

قال أبو عبيدة: وكان يقال للجارية: الزرقاء واسمها عنز، وكانت من جديس. وقال غيره: القائلة لهذا هند
بنت الحس:

قالت: ألا ليتما هذا الحمام لنا ... إلى حمامتنا أو نصفه فقد
قولها " فقد " أي حسبي وقدك حسبك.
فحسبوه فألفوه كما زعمت ... تسعاً وتسعين لم يقص ولم يزد
فكلمت مائة فيها حمامتها ... وأسرت حسبة في ذلك العدد
ومن المشهور الذي يتطارحه الناس أشعار:
لها الثلثان من قلبي ... وثلثا ثلثها الباقي
وثلثا ثلث ما يبقى ... وثلث الثلث للساقى
وتبقى حصص ست ... لقسم بين عشاق
الأصل مائتان وثلاثة وأربعون، ذهب الثلثان مائة واثنان وستون، الباقي أحد وثلثون، ذهب ثلثا ثلثه، يبقى
سبعة وعشرون فيذهب ثمانية عشر وهو قوله: وثلثا ثلث ما يبقى وتبقى تسعة ثلثها للساقى، وهو قوله:
وثلث الثلث للساقى ويبقى ستة فصيرها حصصاً ليستوي له الشعر. فقال: ويبقى حصص ست لأنه لو
قال: اسهم كانت ستة.

نقصان الألف وإسقاطها

ألف الوصل لا يجوز إسقاطها من الخط إلا في ثلاثة مواضع: تحذف من بسم الله الرحمن الرحيم وقد ذكرنا
ذلك.

وتسقط من ابن إذا جاء بعد اسم ظاهر في معنى فلان، وكان مضافاً إلى اسم ظاهر كالإسم الأول، وكان

الابن نعتاً للإسم كقولك: مررت بزید بن محمد، وجاز إسقاط الألف لأن الإسم الأول ولآخر قد دلا على الابن فعرف موضعهما فحذفت، وإنما فعلوا ذلك للإلجاز، فعلى هذا أجر الابن ما دام الابن واحداً، فإذا ثبتت كتبت: جاءني زيد ومحمد ابنا عبد الله كان بالألف، وإذا كان الابن مبتدأ لم يجر إسقاط الألف منه لأنه لم يأت قبله ما يدل عليه، وكذلك إذا كان خبراً قبح إسقاط الألف كقولك: إن محمداً ابن زيد لأنه كالمبتدأ، ولئلا يشبه الخبر النعت، وكذلك إذا أضيف إلى اسم ليس في معنى فلان كقولك: زيد ابن الرجل الصالح، وكذلك إذا أضيف إلى مكني عنه كقولك: زيد ابنك، أثبتت الألف في هذه كله، فإذا صرت إلى المؤنث كتبت فلانة ابنة فلان بالألف لا يجوز إسقاطها، لأن النسب بالنساء لم يكسر فيعرف موضعه، كما كثر في الرجال، ولأن في ابنة لغة أخرى يقال: بنت بالتاء، ومن العرب من يجعل الهاء في ابنة تاء لأنه يبنى الكلام على الإضافة لأن الهاء تصير في ابنة تاء لتلا يلتبس فيقال: ابنت.

والموضع الثالث أن تكون ألف الوصل مع لام، كقولك: "الرجل" فإن هذه الألف تسقط إذا كانت لام الصفة معها، وهي اللام الزائدة مكسورة أو مفتوحة، فالمكسورة مثل قولك: "للرجل" مال. والمفتوحة كقولك: "للتوب" خير من ثوبك وأشبه ذلك، وإنما فعل ذلك لأن الحرف علم مع إسقاطها فمالوا إلى التخفيف فهذه قصة ألف الوصل.

فأما حذف الألف إذا كانت حشواً نحو خالد ومالك وما يشبه ذلك فأكثر ما تحذف إذا كانت في الأسماء المستعملة لمعرفتهم بالحرف فإذا كانت في اسم فهو نعت لم تحذف، مثل شاكر وصابر وظالم وصادق، وأشبه ذلك، لأن النعت لا يتكرر للإنسان فيتكرر الاسم فيعرف. وقد أسقطوها من صالح نعتاً ولا نعلمهم أسقطوها من غيره، وذلك أنهم شبهوها بالإسم لما كثر صالح في أسماءهم، وهو رديء في القياس. فإذا صرت إلى الجمع سهل إسقاط الألف لقلة إشكاله، مثل الظالمين والكافرين وإتباتها أجود.

فأما ما كان من بنات الياء والواو نحو: الراضين والساعين وفي الرفع: لراعون وأشبه ذلك فلا يجوز طرح الألف منه لأنه قد حذف منه موضع اللام من الفعل، وهو الياء، لأن الأصل الراعيون في الرفع والراعيين في النصب والخفض، فالياء الأولى تسكن لأنها معتلة وياء الجميع أو واوه ساكنة، فأسقطوا الياء الأولى للالتقاء الساكنين، واستقبحوا أن يحذف الألف، وقد حذفوا لام الفعل فيجحفوا بالحرف.

فإذا أُلّف دراهم فأبما يجوز حذفها إذ تقدمها ما يدل على الجمع كقولك: ثلاثة دراهم وأشبه ذلك وإذا كانت مفردة لم يجر إسقاطها وما كان مثل عمران ومروان وسفيان وسلطان فإثبات الألف فيه أجود، وإن أسقطتها من الاسم الذي يعرف بسقوطها فجائز. وفي الجملة إن إسقاطها يحسن فيما كثر استعماله من الأسماء.

وقد حذفوا ألف أولئك الثانية استغناء عنها لعلمهم بالحرف. وقد حذف قوم ألف النداء في المصحف فكتبوا: يداود ويعيسى بغير ألف، وإنما حملهم على ذلك علمهم بالنداء وإثبات الألف أجود وأقيس، والسلام عليك إذا أردت التسليم، فكلهم يكتبه بغير ألف. فإذا قلت كان برداً وسلاماً وهذا عبا السلام

فبالألف أجود، وإن كتبت بغير ألف جاز. ويكتبون: ثمنية دراهم وثنني ليال، بغير ألف لمعرفةهم بالحرف فإذا قالوا: ثمان أثبتوا الألف كراهية حذفها مع حذف الياء، فيجحفوا بالحرف كما ذكرنا متقدماً.

نقصان الألف

قال الصولي: لا يكادون يزيدون الألف إلا بعد واو الجمع، مثل آمنوا وكفروا. قال الفراء: وإنما فعلوا ذلك ليفرقوا بين واو الأصل واو الجمع، وواو الأصل التي تكون في مثل: يغزو ويدعوا وأشباه ذلك. وقال الأخفش: إنما فعلوا ذلك لتلا يشبه واو الجمع وواو العطف، إذ كان يجيء في الكلام كفر وفعل وهذا القول يصح إذا كانت واو الجمع تنفرد وتنكسر إذا اتصلت مثل آمنوا وكفروا وظلموا لأنه لا يشبه أمر وفعل. قال أبو بكر محمد بن يحيى الصولي. وحدثنا أحمد بن يحيى النحوي ثعلب قال: سألت محمد بن عبد الله عن إتيان الألف في: ضربوا وقاموا، فقلت له: قال الفراء: فرقوا بين الواو الأصلية في أرجو وأخو وحمو وبين التي ليست بأصلية في ضربوا.

قال الأخفش: كرهوا أن يظن أنها واو نسق إذا كتبوا كفر وفعل ثم بنوا على ذلك. وقال الخليل: الضمة تنقطع إلى همزة فاستوتقوا بالألف، فقال محمد: لا يقع مثل هذا إلا في طبع الخليل. قال أبو العباس: والذي عندي فيه أن اللف جعلت بدلاً من المكنى، وهو الهاء لأنهم إذا قالوا: ضربوه، سقطت الألف، فإذا قالوا: ضربوا، ثبتت، ليعلم أن الحرف قد انفرد، وأخو وأبو، لا يثبت الألف فيه لأن الواو أصلية فالحرف قائم بنفسه: أخو زيد وأبوه. والألف في: مائة زيدت فيما ذكر الأحمش لفصل بينها وبين منه، إذا قالوا: أخذت مائة، لم يشبه أخذت منه، وقالوا أيضاً: فعلوا لتلا يشبه مية. وهذا قول مردول لأن مية متى تذكر وتقع في كتاب. والنس من أهل البصرة والكوفة على ما قاله الأخفش.

الهمز

الهمزة إذا كانت لام الفعل - ومعنى الفعل أن تكون آخر الحرف مثل قرأ ونياً واستهزأ - فإنها تثبت في الحرف ولا تسقط كما تسقط الياء وتكتب على ما قبلها فإن كان الذي قبلها مفتوحاً، كتبت بالألف وإن كان مكسوراً بالياء، وإن كان مضموماً، كتبت بالواو؛ ومن ذلك أن تكتب، إذا أمرت من قرأت: اقرأ بالألف، ومن نبات نبيء بالياء، ومن سؤت سؤ بالواو. فإن لم تكن في موضع جزم، وانضم ما قبلها، كتبت بالواو، كقولك: وهو يسوء زيداً فإذا انكسر ما قبلها، كتبت بالياء مثل يستهزئ. وإذا انفتح ما قبلها فقد اختلف في كتابتها في الرفع، فكتب بعضهم: هو يقرأ ويحبأ، بالألف والواو للزومهم القياس، في كتابتهم الهمزة بالألف، إذا انفتح ما قبلها، فإذا انفتح ما قبلها زادوا الواو في الرفع، وقد كتب في المصحف على هذا المذهب بالياء نحو: " ولقد جاءك من نبي المرسلين " ، بالألف والياء بعدها، وهذا قبيح لأن فيها اشتباه المقصور بالممدود.

قال: وإذا قالوا: الهمزة لام الفعل فهي آخره، مثل الباء من ضرب واللام من فعل، فإذا قالوا: هو عين الفعل، وقعت موقع العين من قولهم فعل مثل الراء من ضرب والناء من قتل، فإذا قالوا: هي فاء الفعل فإنما وقعت أولاً مثل الفاء من فعل وهي مثل الضاد من ضرب والقاف من قتل. وإذا كانت الهمزة فاء الفعل، مثل: أتى وأبى وأذن فإنها تأتي مختلفة. تقول: إذا أمرت: أيت فلاناً وإيذن له فتصير الهمزة ياء، وذلك لأنهم يكرهون اجتماع الهمزتين فتصير الثانية ياء، لسكونها وانكسار ما قبلها. فإذا أدخلت عليها حروف النسق، أسقطت الياء فلم تثبت في الكتاب فتقول: إيذن لفلان وأذن لفلان أيت فلاناً وآت فلاناً، وإنما فعلوا ذلك لأن الهمزة إذا انفتح ما قبلها صارت ألفاً فكرهوا اجتماع الألفين في الكتاب، فحذفوا إحداهما وهي ألف الأمر. وإنما حذفوا لأنها تذهب من اللفظ في الوصل والهمزة تثبت في اللفظ فاهوها كذلك.

وأما في ذوات الأربعة، وهو أن تضيف الحرف إلى نفسك، فتجده على أربعة أحرف مثل: أكلت وأمرت، فإن الهمزة تسقط في هذا الباب، في الأمر فتقول: مر فلاناً بكذا وكل طعامك وكان الأصل: أو كل أو مر، فلما سكنت الهمزة وانفتح ما قبلها، صارت واواً، وكل واو وقعت بين ضمتين أو كسرتين تسقط، فلما سقطت الواو، بقي أمر، فأسقطت الألف الجنبية للأمر، لأنها إنما تدخل لسكون أول الحرف، ذلك كان لا يبتدىء بالسكون فلما تحرك أول الحرف أسقطوها استغناء عنها فبقيت مر وكل. فإذا أدخلت حرف النسق، فالأجود أن يكون الحرف على حاله، وإن شئت رددت الهمزة، فثبتت الألف.

وفي القرآن: " وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها " يثبت الهمزة، وإنما ترد الهمزة لأن ألف الأمر التي أسقطتها تذهب في اللفظ فترجع الهمزة فتثبت الألف في الكتاب وترك الهمزة أكثر ولا نعلم جاء الهمز إلا في: " وأمر " ، وكانت تجوز على القياس فإذا سكن ما قبل الهمز، فإن أكثر ما جاء عن العرب إسقاطها من الكتاب إلا أن يكون أثر جاء فيه، من ذلك قول الله عز وجل: " لكم فيها دفء ومنافع " و " يخرج الخبء " و " يحول بين المرء وقلبه " ، كتبوا بغير ألف هذه كلهان ومن العرب من يكتبها على قظها، إذا سكن ما قبلها فإن كانت مضمومة، كتبها بالواو وإذا كانت مفتوحة كتبها بالألف، وإذا كانت مكسورة كتبها بالياء، كتبوا: " هن نساؤ صدق " ، بالواو و " رأيت نساء صدق " بالألف ومررت بنسائي صدق. بالياء. فإذا كانت الهمزة آخر الحروف، والحرف ممدود، كتب بألف واحدة في النصب والخفض والرفع، كقولك: رأيت عطاء وشربت ماء ومررت بعطاء وهذا عطاء. فأما في الخفض والرفع، فلم تثبت الواو ولا الياء لأنهم يستثقلونها طرفاً.

وأما في النصب فالأنهم يكرهون اجتماع شيهين، فإذا اجتمعت في الحرف ألفان، كتبوه بألف واحدة كقولك: شربت ماء، ألا ترى أن ههنا ثلاث ألفات الأولى والهمزة المفتوحة وألف الإعراب. وكل ممدود منصوب فالصواب أن يكتب بالألفين لأن فيه ثلاث ألفات. ومما يستحسن فيه الجمع بين أثنين: قولك: قد قرأاً وجاء، وذلك ليكون فرقاً بين الواحد والمتن، وكتبت

لغفلان برآآت ليكون فرقاً بين الواحدة والجمع، ولأن من العرب من يقف على براءة بالتاء، فلو كتبت بألف واحدة لم تعرف الواحدة من الجمع.

الهاء

كل ما كان من ذوات الياء، وكانت فاء الفعل فيه واواً مثل: وفيت ووعيت وأويت، فإنه يكون في الأمر حرفاً واحداً لأن الأصل "أوفى" بالياء، تذهب الياء للحزم وتسقط الواو، لأنها صارت بين كسرتين فبقي "أف" فتسقط ألف الأمر، لأنه قد استغني عنها لتحرك أول الحرف فبقي الفاء وحدها، فإذا اتصل الكلام بعضه ببعض لم تثبت الهاء في اللفظ، فإذا وقعت وقفت بالهاء، كقولك: فه وقه من وفيت ووفيت، وشبهه من وشيت الثوب، لأنه لا ينطق بحرف واحد استبقاء له، فإذا كتبت كتبت بالهاء، لأن الكتاب على الوقف ألا ترى ان اختيار العرب في كتابتهم رأيت محمد بن عبد الله أن يكون بالألف لأن القارئ ربما وقف على "محمدًا"، فإن لم يثبت فيه الألف أشبه ما لا يجري من الأسماء كقولك: رأيت عمر، وإن كان الكتاب قد استجازوا إسقاطها لكثرة استعمالهم، وذلك ممن لا يعرف أصل الكتاب فيقف على فساده. فإن جعلت قبل الحرف الذي وصلته بالهاء، حرفاً لا يفصل منه، جاز أن تكتبه بغيرها، كقولك: اذهب، وف لزيد، وقالوا: لزيد، وإنما جاز لأن الواو والفاء لا يفصلان وكان الكلمة قد صارت على حرفين وإثبات الهاء أجود.

فأما هاء التأنيث فأصلها إن تكتب بالهاء، إذا كانت مضافة إلى اسم ظاهر، لأن الوقف عليها بالهاء مثل: امرأة زيد، وفناة عمرو، فإذا أضفتها إلى مكني عنه كانت بالتاء، لأنه لا يمكن الوقوف عليها بالهاء، كقولك: امرأتك وفناتك، فهذا الوجه. وقد كتب في المصحف "رحمت الله" و"مريم ابنت عمران" ومثله "نعنت الله"، وذلك لكثرة اصطحابهما ليس يفصلان في القراءة، فصار كالحرف الواحد الذي لا يفصل منه، والهاء في ذلك أجود لأنها تنفصل منه ويسكت عليها. فأما هيهات فمن وقف عليها بالتاء، كتبها بالتاء، ومن وقف عليها بالهاء، كتبها بالهاء لأن الكتاب على الوقف.

ويا أيها الرجل، ويا أيها القوم، تكتبه بالألف، وذلك الوجه. وقد كتب في المصحف "يايه المؤمنون" و"يايه الثقلان". و"يايه الساحر" بغير ألف. وفي جميع القرآن بالألف وهو الصواب.

الواو

الواو تزداد في ثلاثة مواضع: فمن ذلك الواو في: "عمرو"، زيدت ليفصل فيها بينه وبين عمر فإذا كتبت عمراص بالنصب وجئت بالألف لم تحتج إلى الواو، لأن عمر لا ينصرف ولا تدخلع الألف. وزيدت في "أولئك" لتفصل بينها وبين إليك. وزيدت في "يا أُوخي"، لتفصل بين التصغير وبين الاسم على جهته.

فأما المواضع التي نقصت منها فواو " طاوس " و " داود " كتيوهما بواو واحدة، كراهية للشبهين والحرف معروف. ومن كتبه بواوين على الأصل فقد أصاب.
فإذا صرت إلى ما قبلها واو، مثل " آووا ونصروا " و " لووا " و " جاووا " و " باووا بغضب " . فيه ثلاثة أوجه: أجودهن أن يكتب بواو واحدة وألف وقد كتبها بعضهم بواوين وإسقاط ألف وكل قد كتب به.

الياء

كل اسم كانت لام الفعل منه ياء فإنها تحذف في الخفض والرفع، فإذا نصبت لم يكن من إثباتها بد كقولك: رأيت قاضياً وغازياً، فإذا صرت إلى جمع المؤنث السالم من هذا الباب، مثل: جوار وقواض كتبت ذلك أيضاً في الرفع والخفض بغير الياء، وأثبت في النصب الياء ولم تثبت الألف، فتقول: هذه قواض، ومررت بقواض وجوار، ولا تثبت الياء، فإذا أثبت قلت: جوارى ولم تثبت الألف لأنه حرف لا يجري فإذا أدخلت الألف واللام أثبت الياء في الواحد والجمع، كقولك: القاضي والجواري.
ومن العرب من يسقط الياء في الخفض والرفع، فيقول: هذا القاض ومررت بالغاز، وهؤلاء الجوار ومررت بالجوار، فإذا صاروا إلى النصب أثبتوا الياء كما كان قبل دخول الألف واللام والأول أجود.
وإذا كان الجمع بالنون مثل القاضين والمصلين، كتبت بهاء لأن الياء الأولى منهما قد سقطت لالتقاء الساكنين.

ما يكتب بالياء والألف من الأفعال

قال الصولي: امتحن كل فعل ورد عليك من ذوات الواو والياء بأن تضيفه إلى نفسك، فإن ظهر بالياء، كان الأجود أن تكتبه بالياء وجاز كتابته بالألف على اللفظ مثل قضى ورمى، ألا ترى أنك إذا أضفته إلى نفسك قلت: قضيت ورميت. وإن ظهر الفعل بالواو، كتبت بالألف لا غير مثل دعا وعلا، ألا ترى أنك إذا أضفته إلى نفسك قلت: دعوت وعلوت. فقس على ذلك كل ما ورد عليك إن شاء الله تعالى تصب.
وكل ما كان من ذوات الواو والياء، رددته إلى ما لم يسم فاعله فاكتبه بالياء فيما كان ماضياً ومستقبلاً معاً، كقولك: دعى يدعى وغزى يغزى ورمى يرمى.
وكل فعل من ذوات الياء والواو، زدته في أوله شيئاً، فاكتبه بالياء، فإنه أجود، وإن كتبت بالألف جاز على اللفظ مثل ادعى واستقصى واستدعى، لأنك إذا لفظت به كان بالياء، لأن ذوات الواو إذا زيد في أولها شيء ردت إلى الياء.

المقصود والمدود

كل اسم ممدود فإنه يكتب بالألف، كان من ذوات الواو والياء لا اختلاف في ذلك.
فأما المقصور فامتحنه بالثنية، فإن كان بالياء، كتبت بالياء وجازت كتابته بالألف، وذلك نحو فتى ورحى

لأن تشبيهما بالياء نحو فتيان ورحيان، وإن كانت تشبيته بالواو كتيبه بالألف لا غير، نحو قفا وعصا لأن تشبيتهما قفوان وعصوان.

وكل اسم في أوله ميم مفتوحة أو مكسورة فاكتبه بالياء مثل المثني والمدعى والمرمي والمقضي. وإن كانت في أوله ميم مكسورة فاكتبه أيضاً بالياء ما كان اسماً مثل المقري الذي يقرى فيه الماء أي يجمع والمهدى الذي يهدي عليه، فإن كان نعتاً، فاكتبه بالألف لأنه ممدود مثل معطاء ومهداء. فإذا كان الاسم على فعل أو فعل بكسر الفاء وضمها مع فتح العين فاكتبه بالياء من أي النوعين كان مثل هدى وسدى وهمى ورضى.

وكل مقصور كانت لام الفعل فاكتبه بالألف مثل الدنيا والعليا والحقيا وروايا وخطايان، وإنما كتبها بالألف لأنهم كرهوا الجمع بين ياءين في الكتاب. وأما القصوى والهوى وما أشبههما فإنها تكتب بالياء لأنه ليس من أسماءهم فأخرجوه مخرج عيسى وموسى ويحيى.

وأما قوله عز وجل: " ويحيى من حي عن بينة " فبالألف لا غير و " زكريا " كتبوه بالألف لأن فيه لغتين بالمد والقصر كتبوه بالألف لأن الألف كمعهما وكذلك " الزنا " و " الشرا " بالألف لأن فيه لغتين.

وإذا كانت عين الفعل همزة. ومعنى عين الفعل أن تقع وسطاً من مثل فعل مثل نأى ينأى وشأى يشأى، كتبت بالياء، وإن كانت من بنات الواو، ألا ترى أنك تقول: نأوت قال: وإنما فعلوا ذلك كراهية ن يجمعوا بين ألفين فقس على ذلك.

ما كتب على غير القياس

من ذلك الصلوة والزكوة والعدوة والحيوة والمشكوة والربو، كتب كل هذا في المصحف بالواو، وكان يجب أن يكتب بالألف للفظ، وإنما كتبت كذلك على مثل أهل الحجاز لأنهم تعلموا الكتاب من أهل الحيرة، وهذا إنما فعل بسبب قلة الكتاب في ذلك الزمان، وإن الذين كتبوه أهل الحجاز، وأنت اليوم بالخيار، إن شئت كتبتهم بالألف وإن شئت أقررتهم على ما في المصحف.

كتاب النون الخفيفة

النون الخفيفة تكون عند الوقف عليها في النصب ألفاً، وفي الخفض ياء، وفي الرفع واواً. وكذلك تكتب نحو: اضربن يا رجل، فإذا وقفت عليه قلت: اضرباً، ومنه قوله عز وجل: " لنسفعاً بالناصية " ، كتبت في المصحف بالألف لانفتاح ما قبلها، معناه لنحذين بناصيته والسفع الجذب بشدة، والناصية مقدم الرأس، يريد جل وعز لنذلنه بذلك. وتقول: اضربي يا امرأة بالياء لأن الوقف بالياء واضربوا يا رجال بالواو لأن الوقف عليها بالواو.

ومن العربي من يقف على النون، فمن كانت هذه لغتهم كتبت بالنون. وتقول: اضربن يا رجل نصبت

الباء، وموضعها جزم للأمر لسكون النون كراهية اجتماع ساكنين، وتثنى اضربان يا رجلان واضربن يا رجال. وفي المؤنث اضربن يا امرأة واضربان مثل الذكر. وفي الجميع اضربن يا نسوة، فتشدد النون ضرورة لأنهما نونان نون جمع المؤنث والنون الخفيفة.

والنون الخفيفة والثقيلة، تقع كل واحدة منهما موقع الأخرى، وتقول في النون الثقيلة: اضربن يا رجل واضربان واضربن يا رجال. وفي المؤنث اضربن يا امرأة والتثنية كالدكرين، وفي الجميع اضربان، استثقلوا ثلاث نونات نون الجمع والنون الشديدة وهي نونان فأبدلوا الوسطى ألفاً. والدعاء كالأمر والنهي كقولك: اللهم ارزقنا فلاناً وفي الاستفهام أتقومن يا رجل.

الإدغام

الإدغام في الحرفين إذا كانا من جنس واحد، يتلو أحدهما صاحبه، وتحركا كتباً حرفاً واحداً، مثل: غض ومد، لأن الأول منهما يسكن ويدغم في الثاني. وإذا كانا من حرفين كتباً حرفين، وفي اللفظ كانا واحداً مشدداً نحو: لم يفتق قاسم، ولم ينصف فرعون، فإذا سكن الثاني أثبتا حرفين مثل: لم يمدد ولم يعرض، فإذا كانا من حرفين وهما متحركان، أحدهما ساكن كتباً حرفين، مثل: لم يترك كبيرهم لصغيرهم شيئاً، إن افرقا أو اتصل أحدهما بصاحبه وإنما يكون الاتصال إذا كان الثاني حرف كناية كقوله تعالى: " أينما تكونوا يدر ككم الموت " . وكقول زهير:

فتعركم عرك الرحي بثقالها

وكذلك هو مذهبه في الفتح ليس في ذلك اختلاف. فإذا كان الحرفان نونين، فإن من العرب من يدغمهما، ومن من يظهرهما: فيقول الذي يدغم: أنتم تضربوني، ويقول الذي لا يدغم أنتم تضربوني فيكتب في الإدغام بون واحدة ليكون فرقا بين المدغم وغير المدغم. وإن كان الحرفان المدغمان من جنسين أظهرهما على جنسيهما، كهولك اتخذت ووعدت، فإذا كان المدغمان يتولد منهما حرف غيرهما كتب ذلك المتولد مثل مدكر ومظلم قال زهير:

هو الجواد الذي يعطيك نائله ... عفوا ويظلم أحياناً فيظلم

وأما اللامان اللتان تكتبان في أول الحرف، إحداهما فاء الفعل والأخرى تحيء مع الألف للتعريف، فإنك تكتبها حرفين نحو اللحن والليل. وإنما كتبوا الذي بلام واحدة لأنها لا تنفرد عن الأخرى وكذلك الذين. فأما اللذان في التثنية فإنها كتبت على الأصل لتفرق بين التثنية والجمع.

ما يقطع ويوصل

يكتبون: أحب " أن لا " تفعل كذا بألف ونون، وتكون " لا " مقطوعة منها وهو أجود، لأن القارئ ربما احتاج أن يقف على النون. والكتاب على الوقف، فمنهم من يكتب بألف ولام موصولة لأن النون تدغم في اللام إذا نطق بها، وكتبت على اللفظ. و " كلما " إذا أردت بها الجزاء كقولك: كلما فعلت فعلت، كتبتها

حرفاً واحداً لأنها أداة، وإذا أردت بها معنى الذي كقولك: كل ما فعلت فصواب، فاقطع " كل " من " ما " وكذلك: إنما وكأنما ولكنما إذا أردت بمن الأدوات فاجعلها حرفاً واحداً. وإذا أردت بمعنى " ما " الذي فاقطع، وذلك أن الوقف في الأولى لا يستقيم على بعض الحروف دون بعض. وإذا كانت بمعنى الذي وقفت على ما قبلها. فقس عليه تصب إن شاء الله تعالى. وكتبوا: " لئلا " موصولة وهي " لأن لا " ، فجعلوها كالشيء الواحد وكتبوا: " هأنتم هأنا " بألف واحدة، ولم يكتب بألفين جعلاً كالشيء الواحد.

تم الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه

في يوم الخميس المبارك سادس عشري شهر الحجة الحرام ختام سنة ١١٠٧ ألف ومائة وسبع من الهجرة النبوية على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام. على يد كاتبه يوسف بن محمد الشهير بابن الوكيل الملوي غفر الله له ولوالديه ومشائخه والمسلمين.

اقسام الكتاب